

## الفصل الثالث

### الفرعونية الملعونة

المتتبع لكل الآيات التي تناولت فرعون في القرآن سواء تصريحاً أم تلميحاً يخلص إلى جملة أو خليط من الصفات الذميمة والمنبوذة، لا تكاد تجد فيها صفة أقل قبحاً من أختها، فبنظرة سريعة إلى الآيات المتناولة لقصته مع موسى تبرز صفات الاستعلاء والتكبر والجهل والطغيان والإسراف والضلال والانتقام والإجرام والإفساد والكذب وغيرها، غير أن أكثرها بشاعة ادعاؤه الألوهية والربوبية.

وفيما يلي سوف نتناول بشيء من التفصيل جملة هذه الصفات والتي شكلت شخصية ذلك الفرعون وشكلت ما يمكن تسميته بالذهب الفرعوني أو الفرعونية.

### التأله وادعاء الربوبية

لقد كانت الآفة الكبرى والذنب العظيم الذي لا يغتفر، والذي لم يشاركه فيه، فيما يذكر القرآن الكريم سوى ملك آخر لا يقل ضلالاً وتجبراً، وهو «النمرود» ملك بابل في محاجاته مع إبراهيم عليه السلام، وإن لم يكن هذا النمرود بالصورة الفجة التي ظهر عليها فرعون. وكان قد طلب من إبراهيم عليه السلام دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ عند ذلك قال النمرود ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾، ذلك أنى أتى بالرجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل وأمر بالنفو عن الآخر فلا يقتل. ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة:

﴿فَاتَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [سورة البقرة].

أى إذا كنت كما تدعى من أنك تحيي وتميت فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود وفى تسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تخرج كل يوم من المشرق فإن كنت إلها كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب؟. فلما أيقن بعجزه وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام بُهت وخرس وقامت عليه الحجة قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى لا يهديهم إلى طريقه القويم ولا يلهمهم الحجة ولا البرهان بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

ولقد اعتقد المصريون القدماء أن الدولة ملك الحاكم الملك الذى يرقى فى كثير من الأحيان إلى مصاف أبناء الآلهة فى حياته أو الآلهة بعد مماته. ولهذا نجد من قبل فرعون موسى من الملوك من ينسبون أنفسهم إلى الآلهة تقريباً منهم إليهم وإضافة القدسية والشرعية فى نظر شعوبهم بأنهم أبناء للآلهة، وأن الفرعون هو الابن الحقيقى للإله الأعلى. وهناك نقوش فى معبدى حتشبسوت فى الدير البحرى وأمنحتب الثالث بالأقصر، بل وعلى جدران الكرنك (من الدولة الحديثة) توضح كيفية تجسيد الألوهية فى الملك المولود وأن مولد ملك هو مولد إله، حسبما يعتقد القوم فى ذلك الزمان. فنرى آمون (ملك الآلهة ورب الأرباب كما كان يعتقد المصريون القدماء) يأخذ شكل الفرعون الحاكم ويضاجع الملكة الأم. وبعد هذا الزواج الإلهى يشكل «خنوم» الطفل المقدس على عجلة الخزاف فتتم الولادة بمساعدة الربات الحكيمات، ويقدم الطفل الحديث الولادة إلى آمون والده وتعمده الآلهة وترضعه الربات الحتحورات السبع (نقش بمعبد الكرنك)<sup>(١)</sup>.

ولعل هذا ما رسخ فى ذهن وعقيدة فرعون من أن إلهها يتجسد فيه أو أنه هو نفسه إله، وأن الشعب يجب أن يتعبد له. إنها إذن عقيدة عند القوم أو قل سياسة جعلت الملوك يتمادون فيها، فنجد فرعون موسى يقرر ﴿... أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى (١٤)﴾ و ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَائِكَةُ لَعَلَّكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (٣٨)﴾ [سورة القصص] ويواجه موسى عليه السلام فى تحد وغطرسة ﴿قَالَ لَنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ (٢١)﴾ [سورة الشعراء].

ونظراً لتعدد الأرباب والربات فى مصر القديمة (حيث بلغت ما يقرب من ألفين من الآلهة بما فيها الآلهة الأجنبية التى جلبت من سوريا وما حولها) وما جاء به موسى عليه السلام من دعوة إلى الله الواحد الحق وبأنه مرسل منه، نجد فرعون يتساءل جاهلاً أو جاحداً عن ماهية هذا الرب، وهل هو يختلف عما يعرف من آلهة ومعبودات، أو كأنه يتساءل عن مجهول من الأشياء:

﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ أَيُّمُوسَى﴾ [سورة طه] أو ﴿وَمَارَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء]، فما كان من موسى إلا أن أخذ يفسره ويبين ماذا تعنى الربوبية الحق، ومن هو الإله الحق ومدى ما يتصف به من قدرة وعظمة لا تضارعها عظمة فرعون فهو:

(١) جورج بوزنر وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الشعراء].

وفى إجمال بالغ: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [سورة طه - الآية ٥٠].

ومع استمرار الإعراض والجهل لجأ موسى إلى التفصيل الأدق، فأخذ يسوق من الدلائل والحجج الواضحة لأصحاب العقول هذا إن وجدت تلك العقول التي تعي وتفكر، فيقول عن ربه:

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ ﴿٥١﴾ كَلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ [سورة طه].

وأمام هذا الإيضاح الميسر لمعنى الربوبية والمعضد بالآيات الكثيرة، يؤمن موسى يقيناً أن فرعون يعلم جيداً وفي قرارة نفسه أن هذه الآيات التي يراها ويتعرض وقومه لها إنما أنزلها رب العالمين وأنه خلق من مخلوقات الله الضعيفة ويواجهه بذلك، فيقول موسى:

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّجْرِبًا ﴾ [سورة الإسراء].

وتهتز ألوهيته المزعومة أمام الآيات البينات المتتابعة التي جاء بها موسى. فيها هم أولاء السحرة الذين عاينوا من عظيم قدرة الله يخرون على وجوههم سجداً لربهم، مصدقين ما جاء به موسى ومقرين بنبوته ومؤمنين برب العالمين رب موسى وهارون، كافرين بألوهية فرعون المزيفة. فلما رأى السحرة ما رأوا عرفوا أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر فخرؤا سجداً.

﴿ وَأَرْحَبْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذْآ هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿٥٤﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٥٧﴾ [سورة الأعراف].

إن عدم الإيمان بربوبية فرعون والكفر بألوهيته لم ينحصر في هؤلاء السحرة الذين عاينوا ما عاينوا من القدرة الخارقة، بل شمل كذلك من عاينوا فرعون نفسه وتعاملوا معه وأدركوا قدرته الأدمية المحدودة.

فها هو ذا رجل من آل فرعون أو من الحاشية المقربة منه ﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يؤمن بموسى ويتبعه. ولعله كان يمثل انشقاقاً داخلياً في البيت الحاكم وتمرداً على ألوهية فرعون، فقد كان لاشك على علم بأسرار الحكم والقصر وما بفرعون من نواقص ومثالب مما شجعه على أن يواجه ذلك المتأله بثبات وشجاعة ليكشف عن باطله وزيف ألوهيته. ولقد فصل القرآن قصة هذا الرجل في سورة غافر ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُومُ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّهِ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنتَهُمْ كَبُرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنُّ ابْنِ بَنِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَىٰ آلِهَةِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَرَ بِقُتُوبِ أُمَّيْعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا بِمَا عَمِلَ مِنْ صَالِحٍ وَمَنْ ذَكَرِ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْقَهْفَرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَقْرُؤُا أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ

اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ [سورة غافر] وهو فى هذا يعلن إيمانه بما جاء به موسى وكفره بفرعون، موضحاً فى النهاية بطلان ما يدعو إليه فرعون وداعياً قومه إلى الإيمان مثله.

وقد اختلف أهل العلم<sup>(١)</sup> فى هذا الرجل المؤمن فقال بعضهم: كان من قوم فرعون غير أنه كان قد آمن بموسى وكان يُسّر إيمانه من فرعون وقومه خوفاً على نفسه، وقيل هو ابن عم فرعون<sup>(٢)</sup> والصواب فى هذا القول كما يرى ابن كثير الوقف على قوله تعالى: «من آل فرعون» لأن ذلك خبر متناه قد تم. وقال آخرون: بل كان الرجل إسرائيلياً ولكنه كان يكتُم إيمانه من آل فرعون والصواب على هذا القول لمن أراد الوقف أن يجعل وقفه على قوله «يكتُم إيمانه» لأن قوله: «من آل فرعون» صلة لقوله: «يكتُم إيمانه» فتمامه قوله: «يكتُم إيمانه». وأولى القولين فى ذلك بالصواب القول الأول من أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون فقد أصغى فرعون لكلامه واستمع منه إلى ما قاله، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله وقال له: ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. ولو كان إسرائيلياً لكان حرياً أن يعاجل هذا القائل بالعقوبة على قوله لأنه لم يكن يستنصح بنى إسرائيل باعتبارهم أعداء له فكيف بقوله عن قتل موسى لو وجد سبيلاً<sup>(٣)</sup>!

وتشمل قائمة الكافرين بالوهية فرعون من كانت أقرب الأقربين إليه، ومن تعلم تمام العلم كذب ادعائه، ونعنى بها زوجته «آسية بنت مزاحم». فهى وحدها التى تعرف صفات زوجها ومدى نواقص شخصيته والتى ما كانت لترقى إلى مرتبة إله للمصريين. فنجدها تكفر به وتؤمن بالله مع من آمن من بنى إسرائيل. ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ [سورة التحريم].

كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون فتقول: آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء

(١) تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي، وتفسير فتح القدير.

(٢) تفسير الجلالين.

(٣) تفسير ابن كثير.

فأبصرت بيتها فى السماء فمضت على قولها فانترع الله روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح<sup>(١)</sup>.

وقيل كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوق المشط من يدها فقالت: تعس من كفر بالله! فقالت لها بنت فرعون: أولك رب غير أبى؟ قالت: الله ربهى ورب أبيك ورب كل شىء، فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباه. فأرسل فرعون إليها فقال: تعبدين ربا غيرى؟ قالت: نعم ربهى وربك ورب كل شىء الله وإياه أعبد. فعذبها فرعون وأوتد لها أوتادا فشد يديها ورجليها وأرسل عليها الحيات فكانت كذلك فأتى عليها يوما فقال لها: ما أنت منتهية؟ فقالت له: ربهى وربك ورب كل شىء الله، فقال لها: إنى حارق ابنك إن لم تفعلنى، فقالت له: اقض ما أنت قاض. فحرق ابنها وإن ابنها بشرها فقال لها: أبشرى يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا فصبرت. ثم أتى عليها فرعون يوما آخر فقال لها مثل ذلك فقالت له مثل ذلك فذبح ابنها الآخر فبشرها روحه أيضا وقال لها: اصبرى يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا، قال: وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فأمنت امرأة فرعون. وقبض الله روح امرأة خازن فرعون وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيمانا وبقينا وتصديقا. وقيل<sup>(٢)</sup>: هى عمه موسى آمنت به فأطلع الله فرعون على إيمانها، فقال للملأ: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها فقال لهم: إنها تعبد غيرى فقالوا له: اقتلها، فأوتد لها أوتادا فشد يديها ورجليها فدعت آسية ربهها فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخَنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِيهِ وَبِخَنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة التحريم] فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها فى الجنة فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهى تضحك فقبض الله روحها فهى فى الجنة رضى الله عنها.

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمداني عن أبى موسى الأشعري عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وإن فضل عائشة على

(١) تفسير الطبرى.

(٢) تفسير القرطبي.

النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»<sup>(١)</sup>.

وفى رواية أخرى<sup>(٢)</sup> أخرج أحمد والطبرانى والحاكم وصححه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وسلم) ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون مع ما قص الله علينا من خبرهما فى القرآن قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة».

ويتمادى فرعون فى غيه مكذباً موسى ونافياً وجود هذا الإله الذى يدعو إليه موسى فيقول فى سخرية وتحد:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنَّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة القصص].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنَّ ابْنَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ [سورة القصص] ﴿ ٣٦ ﴾ ﴿ اسْتَبَدَّ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا ﴾ [سورة غافر].

وهكذا استمر ضلاله وغطرسته واستعلاؤه إلى نقطة يتعدى فيها كل الحدود إلى الضلال المبين، فقال:

﴿ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [سورة القصص] وقبلها ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ [سورة النازعات]. فلا رب دونى ولا رب لكم فوقى.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنَّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة القصص].

وقال ابن عباس<sup>(٣)</sup>: كان بينها وبين قولته الأولى: «أنا ربكم الأعلى» أربعون سنة. فكان جزاء ما ادعى من ربوبية فى قوله الأول وألوهية فى قوله الثانى، أن أخذه الله الأخذة الكبرى.

(١) تفسير ابن كثير، ومختصره.

(٢) تفسير الدر المنثور.

(٣) تفسير القرطبي.

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة النازعات].

إذن هى النهاية حيث لا عودة، والأخذة الكبرى، أخذة العزيز المقنن ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ ﴿١١﴾ [سورة المزمل]. أى شديداً أو ثقيلًا غليظا، وقيل الوبيل: الشر، والعرب تقول لمن تتابع عليه الشر: لقد أوبل عليه<sup>(١)</sup>. هكذا يمهل الله لمن يتجاوز حدوده حتى إذا أخذه لم يقلته، وتكون أخذته شديدة زائدة فى شدتها ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ ﴿١٠﴾ [سورة الحاقة]، ويقال ربى الشئء يربو: إذا زاد وتضاعف، وهكذا أخذ ربك إن أخذه أليم شديد.

## الطغيان

يعنى الفعل طغى: أى زاد أو تجاوز الحد المقبول، أو أسرف فى العصيان. والطاغوت: الطاغى المعتدى، أو كثير الطغيان أو الشيطان، أو كل ما عُبد من دون الله. والطاغية: العظيم الظلم الكثير الطغيان، والطغيان نفسه هو تجاوز الحد فى الظلم<sup>(٢)</sup>. والطغيان من صفات الفرعونية الذميمة التى شملت أو غلفت ما بعدها من صفات. ولعل اللفظ (طغى) فى حد ذاته، الذى ذكر فى ستة مواضع فى القرآن، منها ثلاثة كان فاعلها فرعون، يوحى بالعمومية فى تجاوز الحدود فى كل شئء، وهو ما أشار إليه القرآن فى قوله تعالى:

﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة النازعات]،

﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة طه].

﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة طه].

إن فرعون تمرد وعتا وتجاوز الحدود واقتضت إرادة الله أن يرسل إليه موسى يدعوه إلى الإيمان والتوحيد، وأن يكف عن استعباد بنى اسرائيل ويفرج عنهم، ويتركهم يخرجون من مصر، على أن تتصف هذه الدعوة باللين أمام هذا الطاغى المتغطرس لعله يتعظ فيكف عن طغيانه وجبروته ويؤمن بربه ﴿ فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئِنَّا لَأَعْلَاهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة طه]. ولا شك أن المدة التى قضاها موسى فى البيت الفرعونى وسابق عهده ومعرفته بالفرعون

(١) تفسير الطبرى.

(٢) المعجم الوجيز.

وبطشه هو ما دعاه هو وأخوه أن يقولوا ربنا إننا نخاف إن نحن دعوانه إلى ما أمرتنا أن نعجل علينا بالعقوبة وأن يفرط علينا ، والإفراط هو الإسراف والشطط وأن يتعدى فيزاد طغيانا .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَنَ ﴾ [سورة طه].

بل إن موسى يتذكر مع ما يتذكر من جبروت الفرعون ، يتذكر قتله للمصرى تلك الجريمة التي هرب على إثرها إلى مدين فراراً من العقاب ، فيخاف أن يؤخذ بجريمته أو ذنبه القديم بعد عودته إلى مصر فيخشى أن يُقتل جزاء ذلك .

﴿ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَسُوا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [سورة القصص].

ولعل تلك الجريمة ظلت ماثلة في الأذهان وتعيها الذاكرة الفرعونية على الرغم من تقادمها ومضى المدة على حدوثها حتى إنه ذكر بها موسى عند عودته فقال له :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَمِثْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ ﴾ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ [سورة الشعراء].

وهذا الخوف من طغيان فرعون إنما كان نتيجة لتقدير موسى للمسئولية التي كُلف بها ، وأن الله قد بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك ، وأجبرهم وأشدهم عنادا ، وأكثرهم جنودا ، وأعمرهم ملكا ، وأطغاهم وأبلغهم تمردا . وأن الفرعون لن يفرط في عبده من بنى إسرائيل بسهولة ، فعلى عاتقهم أعمال لا طاقة لغيرهم بها .

كل هذا دفع موسى أن يطلب من ربه أن يشرح له صدره ليعي ما يودعه من وحيه ، ولكي يجتريء به على خطاب فرعون ، وأن يبسر له أمره فيسهل عليه القيام بما يكلفه به من الرسالة ، وأن يطلق لسانه بالمنطق ، وأن يحل تلك العجمة التي كانت في لسانه . تلك اللثغة التي أصابته حين عرض عليه الفرعون التمرة والجمرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه وذلك عن اقتراح امرأة فرعون ترد به عنه عقوبة فرعون حين أخذ موسى بلحيته وهو رضيع لا يعقل<sup>(١)</sup> .

وإنما طلب موسى ما طلب حتى يعلم بنى إسرائيل وفرعون وقومه ما يقوله لهم ويفقهوه . والفقه في كلام العرب الفهم ، وأن يجعل له عونا من أهل بيته أخيه هارون الذي يكبره فيشدد به أمره ويقوى ظهره .

(١) تفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبي ، وتفسير الطبري .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عَقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾  
وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَنُورًا أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدَّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تَسْبِحَكَ كَثِيرًا  
﴿٣٣﴾ وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ [سورة طه].

وفي اسلوب أدنى لغة يقول سفر الخروج (٣ : ١١) «فقال موسى لله من أنا حتى اذهب إلى فرعون وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر، فقال إنى أكون معك».

ولقد كان موسى عليه السلام يخشى أن يكذبه فرعون وقومه فلا يؤمنوا بما جاء به من النبوة والرسالة، فيضيق صدره ولا ينطلق لسانه لتأدية الرسالة ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء].  
فهكذا يكون الخطاب.

ويُهدىء الله من روعه ويطمئنه :

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة طه].

وأجابه الله إلى ما سأل من شرحه صدره وتيسير أمره وحل عقدة لسانه وتصيير أخيه هارون وزيراً له وشد أزره به وإشراكه في الرسالة معه.

﴿ قَالَ سَنَنْشُدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمَنْ  
اتَّبَعَكُمَا الضَّالِّينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة القصص].

﴿ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيِّتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة طه].

أى لا تخافا منه فإننى معكما أسمع كلامكما وكلامه وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى على من أمركم شىء واعلما أن ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطن إلا بإذنى وبعد أمرى وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأبيدى.

وهكذا يتلاشى الخوف ويتسلح موسى بمعية الله وبما أجابه به ربه. ويمضى هو وأخوه هارون ليبلغا رسالة الله إلى فرعون ذلك الطاعى وهما استشعران أن الله معهما يسمع ويرى ولا يعبان بطغيان فرعون وغطرسته وبغيه.

## التعالى والاستعلاء

وتلازم صفة الطغيان وتشاركها في الكيان الفرعوني صفة العلو والاستعلاء على خلق الله وقهرهم. والفعل «علا» لم يذكر في القرآن بصيغة الأفراد إلا في موضع واحد في دلالة مباشرة على صفة الاستعلاء في فرعون وهو ما جاء في صدر [سورة القصص].

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾. كما لم يذكر لفظ "عالين" في القرآن إلا في موضعين أحدهما في الآية السادسة والأربعين من سورة المؤمنون للإخبار عما وقع من فرعون وملئه عندما أرسل إليهم موسى عليه السلام.

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة المؤمنون]، والموضع الثاني في الآية الخامسة والسبعين من [سورة ص] في تساؤل من الله تعالى لإبليس عليه اللعنة عندما تكبر عن السجود لآدم وترفع عن طاعة الله.

﴿ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة ص].

ولعل هذا التعالى والاستعلاء قد ظهر من فرعون وملئه بوضوح في موقفهم من دعوة موسى وأخيه هارون فهما في نظرهم مجرد بشرين مثلهم فلم يكونا من الملوك ولا الآلهة كما أن قومهما عبيد لهم ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة المؤمنون]. وتكبر فرعون وتجبر وجاوز الحدود المعهودة في الظلم والعدوان في الأرض، أرض مصر وربما كل ما امتد إليه نفوذه من الأرض، وعلا أهلها وقهرهم حتى أقروا له بالعبودية. وجعل أهلها شيعاً أى فرقا وأصنافاً يشيعونه في كل ما يريده من الشر والفساد أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته أو أصنافاً في استخدامه يستعمل كل صنف في عمل ويسخره فيه من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية، أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم. ويستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل فاستعملهم في أحسن الأعمال وأكدها، وأرهقهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته المصريين التي يترفعون عنها. بل تعدى ذلك إلى قتل أبنائهم واستحياء نساءهم إهانة واحتقاراً لهم واستعلاءً عليهم، فقد كان المصريون يستقذرونهم وينظرون إليهم من عل.

فهل كان هذا التعالي والاستعلاء على بنى إسرائيل واضطهادهم وتعذيبهم العذاب المهين وهذا الإجمام الذى صبّه عليهم وذلك قبل بعثة موسى عليه السلام. هل كل هذا كان نتاجاً لطبيعة فى الفرعون جُبل عليهما، أو خوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذى يكون سبب هلاكه وذهاب ملكه على يديه، فقد كان بنو إسرائيل يتدارسون فيما بينهم ما يؤثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه. وذلك فيما يرجح بسبب ما جرى لسارة امرأة الخليل إبراهيم من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل. فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى الفرعون فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل<sup>(١)</sup>. فقد كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا فى منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل وأحرقت بيوت مصر. فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه يعنون «بيت المقدس» رجل يكون على وجهه هلاك مصر فأمر ببنى إسرائيل ألا يولد لهم غلام إلا ذبحوه ولا تولد لهم جارية إلا تركت. وقال للقبط: اجعلوا بنى إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة فجعل بنى إسرائيل فى أعمال المصريين الذين يترفعون عنها<sup>(٢)</sup>.

ربما يصح كل هذا، وربما يصح أيضاً أن اضطهاده لبنى إسرائيل كان لوناً من التعبير عن رفض الأجنبي وكل ما يصدر منه، حيث جاء بنو إسرائيل واستوطنوا وحكموا واستقروا على الأرجح فى عهد ملوك الرعاة (الهكسوس) الغزاة الوافدين. ولعل الذى أوغر صدر فرعون على بنى إسرائيل ربما يرجع أيضاً إلى ما رُكب فيهم من ميل إلى العزلة وكراهية الاختلاط مما حجب نفوسهم وولاءهم عن ذلك البلد الذى أثمروا فيه وتوالدوا منذ أن قدموا إليه فى عهد يوسف عليه السلام. ولعله قد فقد الثقة بهم وشك فى ولائهم له، وقد روت التوراة ذلك فى سفر الخروج (١ : ٧ - ١٠):

«وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا وكثروا كثيراً جداً وامتألت الأرض منهم، ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه، هوذا بنى إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض».

من هنا أخذ يعذب بنى إسرائيل ويحملهم ما لا يطيقون من أعمال، فجعلهم خدماً

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير الضبى، وتفسير القرطبي، وتفسير فتح القدير، وتفسير النسفى.

وخسولاً وصنّفهم في أعماله ، فصنف يبنون وصنف يحرثون وصنف يزرعون له . فهم في أعماله ومن لم يكن له صنعة فعليه الجزية ، فسامهم كما قال الله تعالى سوء العذاب أو العذاب المهين .

ويشير العهد القديم إلى ذلك كنبوءة لإبراهيم عليه السلام :  
«فقال لإبرام اعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويُسْتَبْعَدون لهم فيذلونهم أربعة مائة سنة» (تكوين ١٥ : ١٣) .

كما ذكر في سفر الخروج (١ : ١٤) :  
«فجعلوا عليهم رءوس تسخير لكي يذلهم بأثقالهم ، فبنوا لفرعون مدينة مخازن فيثوم ورعمسيس . ولكن بحسما أذلّوهم هكذا نموا وامتدوا فاختشوا من بنى إسرائيل فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن ، وفي كل عمل في الحقل . كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفاً» .

وعلى الرغم مما يكتنف هذا النص من مبالغة مفرطة فيما جاء على لسان فرعون من أن بنى إسرائيل شعب أكثر وأعظم من المصريين فكيف يكون ذلك في مدة لا تتجاوز أربعمائة سنة بقليل وهى المدة التى تمتد من دخولهم مصر فى عهد يوسف عليه السلام إلى خروجهم منها كما أشار إلى ذلك العهد القديم ، ولعل الأصدق فى ذلك أنهم كانوا قلة ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ [سورة الشعراء] ، إلا أن هذا النص يشير إلى ألوان العذاب التى كان يذيقها الفرعون لبنى إسرائيل ، والتى زاد عليها كما قلنا بذبح ذكورهم استحياء إناثهم ، فأصدر أمراً إلى القوابل : أن من يسقط فى يدها غلام ذكر تقتله فور نزوله . وزاد فى القتل والتذبيح حتى قال الوزراء له : أفنيت الخدم والحشم الذين يخدمونك ، فأصدر الأمر بقتل الغلمان عاماً وتركهم عاماً آخر<sup>(١)</sup> .

ومع أن بنى إسرائيل لم يكونوا بعد يوسف - وكذلك عهدهم دائماً - على طريقة مستقيمة فى الالتزام بالتعاليم الدينية ، بل من المرجح أنهم هبطوا فى دينهم إلى حد الشرك ، وعبدوا دون الله آلهة من الحيوان والطير . وأغلب الظن أن ما تعرضوا له من ظلم الفرعون كان لونا من انتقام الله منهم على بغيهم وشركهم حتى يعودوا إلى التوحيد . غير أن هذا لا يبرر للفرعون اندفاعه فى العذاب وإسرافه فى القتل للمذنب وغير المذنب على السواء وخطأه أو خطيئته هو ومستشاريه .

(١) تفسير الدر المنثور .

﴿فَالْقِطْعَةُ ۖ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خٰطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة القصص].

إذا إنه الاستعلاء والتجبر على طائفة من عباد الله، إلا أن هذا الاستعلاء وهذا التجبر لم يدم طويلاً فقد أراد الله لبنى إسرائيل أن يمن عليهم ويجعلهم أئمة في الإيمان وورثة للحكمة والنبوة، فقد قال الله تعالى:

﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة القصص].

وقد فعل ذلك بهم كما قال تعالى:

﴿وَأَرْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَضَعُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة الأعراف].

ومشارك الأرض ومغاربها أى جهات شرق أرض الشام وجهاً غربها قد مُلكت للقوم الذين كانوا يُستضعفون بقتل أبنائهم واستخدام نسائهم، تلك الأرض التي بارك الله فيها بإخراج الزروع والثمار والأنهار والعيون، الأرض التي تفيض لبنا وعسلا. وتمت كلمة ربك الحسنى التي لا خلاف على حدوثها بما كانوا يحبون، وذلك جزاء صبرهم على صنيع فرعون. ودمر الله ما عمل فرعون وقومه فى أرض مصر وما كانوا يعرشون من منازل وقصور.

وهكذا كان جزاءهم فى الدنيا، وليس لهم من مكانة فى الآخرة لما ارتكبوا من مفاسد واستعلاء ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة القصص].

## الإسراف

وترتبط بصفة العلو والاستعلاء صفة أخرى ملازمة لها، ومنعكسة على كل الصفات التي يتصف بها فرعون موسى، وهى صفة الإسراف والتي تعنى لغة مجاوزة الحد. إنه يطغى ويفرط ويسرف فى استعلائه وجبروته ويتجاوز حدود كل شىء. وإنه ليتجاوز الحق إلى الباطل ويجحد بوحدانية الله ويدعى لنفسه الألوهية ويسفك الدماء بغير حق.

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة يونس].

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة الدخان].

والإسراف من الصفات الممقوتة، والتي لا يحبها الله في عباده حتى في الطعام والشراب وهو مما يحل للمرء ويحافظ على بقائه: فقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [سورة الأنعام].

﴿ يَبْنِيْ اءَادَمَ حُدُوْدًا زَيْنَتًا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا اِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴾ [سورة الأعراف].

ولعل مؤمن آل فرعون كان أكثر من رصد هذه الصفة لخبرته الطويلة عبر المواقف والسنوات التي تعامل فيها مع فرعون. فنجدته ينعته بهذه الصفة وهو يشير إلى ذلك في سياق اعتراضه على فكرة قتل موسى عندما أراد فرعون قتله مختتماً هذا الاعتراض بالإشارة إلى أن من ركب فيه من الإسراف والكذب فإن الله لا يهديه.

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ اِيْمَانَهُ: اُنْقَتُلُوْنَ رَجُلًا اَنْ يَقُوْلَ رَبِّيَ اَللّٰهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُّكُمْ اِنَّ اَللّٰهَ لَا يَهْدِيْ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [سورة غافر].

إنه يضيف في هذا السياق إلى الإسراف صفة ذميمة أخرى وهي الكذب. وفي موضع آخر يشير إلى هذه الصفة مضيفاً إليها صفة الشك والريبة، ففرعون شك في وحدانية الله تعالى مرتاب في موسى ورسالته وذلك في سياق تذكيره لقومه بما فعلوه مع يوسف عليه السلام من قبل وتحذيرهم من هذا الإسراف والشك.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِيْ شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ اِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَّبْعَثَ اَللّٰهَ مِنْ بَعْدِهِ رُسُوْلًا كَذٰلِكَ يُضِلُّ اَللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [سورة غافر].

وهو في استمرار دعوته إلى قومه مذكراً لهم بما حدث للأمم التي كذبت برسولهم من قبل، نجده يطيل في خطابه ببسالة وشجاعة منذراً قومه بأن المكان الطبيعي لكل من يتجاوز الحدود ومن يسرف في الضلالة هو النار ويعلن براءته مما يفعل فرعون وقومه.

﴿ وَيَقُوْمُوْا مَا لِيْ اَدْعُوْكُمْ اِلَى النَّجْوٰى وَتَدْعُوْنِيْ اِلَى النَّارِ ﴾ [سورة غافر].

بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ﴿٤٢﴾ لَا جْرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِيضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَعِيَّاتِ مَا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [سورة غافر].

هكذا يكون جزاء من يلتزمون الإسراف والكذب أنهم يعرضون على النار صباحاً ومساءً ويقال لهم: هذه منازلكم إذا بعثتم. وقيل يعرضون عليها صباحاً ومساءً يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم نقمة وتوبيخا لهم. وقيل إنهم لما هلكوا وأغرقهم الله جعلت أرواحهم في أجواف طير سود فهي تعرض على النار كل يوم مرتين «غدوا وعشيا» إلى أن تقوم الساعة<sup>(١)</sup>. وهكذا كان صدق الوعد من الله إلى رسله وهكذا كان هلاك المسرفين. ﴿تُسْمِّى صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١﴾ [سورة الأنبياء].

## الكبر والتكبر

والكبر أو التكبر من الصفات التي لا يقبلها ولا يحبها الله تعالى ﴿لَا جْرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوبُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ [سورة النحل].

وفى الحديث القدسي:

«الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته» رواه الحاكم عن أبي هريرة.

«الكبرياء ردائي والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار» رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة.

وهى صفة أخرى تضاف إلى حزمة الصفات الذميمة التي أتصف بها فرعون، إنه لا يؤمن أنه سوف يقف بين يدي خالقه ليحاسبه على ما اقترفت يده، وظن هو ومن معه من جنوده الذين يؤمنون به ولا يعارضونه أنهم لا يرجعون إلى الله.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٧﴾ [سورة غافر].

(١) تفسير الطبرى، وتفسير القرطبي.

ولقد عاين هذه الصفة مؤمن آل فرعون أيضاً، فهو يذكر هذه الصفة في سياق ناصحه التي يوجهها إلى قومه في إخلاص يكاد يقطر به دماء قلبه، مذكراً إياهم بفضل الله عليهم وما حباهم به من نعم ومتبراً مما يفعل فرعون، ومستعيذاً بالله من ذلك المتكبر المغرور الذى يكذب بآيات الله الواضحة ويجادل فيها بغير حق.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة غافر].

إنه ظن أنه فوق المساءلة وفوق الحساب، فهو ليس ككل البشر وكيف ذلك وهو ربهم وإلههم، لقد ختم الله على قلبه فكيف تكون الهداية وكيف يكون الإيمان.

وعادة ما تصاحب صفة التكبر فيه صفة الجبروت كما عاينها ذلك الرجل المؤمن، فهو جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهى ولا يخاف عذاب الله وعقابه. أو قد تكون هذه الصفة مصحوبة بالاستعلاء على عباد الله ويشاركه في ذلك ملؤه أى آله أو قومه ومن ساروا على نهجه وكانوا عوناً للشيطان عليه مثل قارون وهامان، فالآيات التالية تشير إلى مشاركة كل هؤلاء له فى الاستكبار:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة يونس].

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سورة الأعراف].

لقد استكبر هو وجنوده عن عبادة الله رب العالمين وعن اتباع الحق، وطغوا وتجبروا وأكثروا فى الأرض الفساد، واشترك معه أيضاً فى الكبر والاستكبار من كانوا على مذهبه وفرعونيته قارون وهامان، كما فى الآية الكريمة:

﴿وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَكَانُوا كَانُوا سَاقِطِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة العنكبوت].

ومما يلفت النظر أن الفعل «استكبر» على الأفراد ذكر فى القرآن فى أربعة مواضع منها اثنان اختص بهما إبليس عليه اللعنة:

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿٧٤﴾ [سورة ص].  
 ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ  
 الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ [سورة البقرة].

وموضع للدلالة على فرعون:

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا لَآ يُرْحَمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾  
 [سورة القصص].

والرابعة فى الوليد بن المغيرة ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ ﴿٢٣﴾ [سورة الدثر].  
 أما لفظ متكبر فلم تذكر فى القرآن سوى فى موضعين الأول على لسان سيدنا موسى عليه  
 السلام للدلالة على فرعون.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٧﴾  
 [سورة غافر].

والآخر على لسان مؤمن آل فرعون للدلالة أيضاً على فرعون.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطٰنٍ أَتٰهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءٰمَنُوا  
 كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ﴿٣٥﴾ [سورة غافر].

ترى ماذا كانت عاقبة هذا التكبر وهذا الاستكبار، إنها جهنم وبئس المصير إنها مثوى  
 كل متكبر.

﴿وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسَوَّدَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى  
 لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٦١﴾ [سورة الزمر]. بلى:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ  
 ﴾ ﴿٦١﴾ [سورة غافر].

فها هى ذى جهنم تفتح أبوابها وذراعها لفرعون وآله ليعرضوا على النار غدواً وعشيا،  
 وتكون مثوى لهم ولن على شاكلتهم من المتكبرين المستكبرين.

﴿أَدْخِلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ [سورة غافر].

## الظلم

والظلم هو الجور ومجاوزة الحد، أو وضع الشيء في غير موضعه<sup>(١)</sup>. ولقد جار فرعون على بنى إسرائيل وسامهم سوء العذاب، وتجاوز حدوده مع موسى عليه السلام وهو يعلم أنه رسول الله إليهم، بل ومع رب العالمين فصار من الظالمين. بل لقد ظلم نفسه أو ظلمته نفسه بادعائه الألوهية وتكذيبه بآيات ربه لقد جاءت آيات ربه فقد فأعرض عنها، أليس في هذا ظلم بين.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [سورة السجدة].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسَى مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [سورة الكهف].

إنه لا ينسى ما تقترب يده فحسب بل يتناسى عمداً ويتجاهل عن قصد كل هذه الآيات التي لا يمكن التعامى عنها. لقد ران على قلبه وكأن في أذنية وقرا فلم يهتد أبداً.

ولقد كان لقومه أو حاشيته جزء من هذا النصيب فصاروا مشاركين له في الظلم بالآيات الكثيرة المتعاقبة على الرغم من أنهم يوقنون بصدق موسى وبصدق ما جاء به من آيات.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة النمل].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى بِنَايَتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة الأعراف].

ولقد شاهد موسى هذا الظلم من فرعون وحاشيته، ورآه أمام عينيه طوال المدة التي قضاها في القصر الفرعوني وقبل بعثته وتكليفه بالرسالة. فنراه يدعو الله وهو خارج من المدينة خائفاً يترقب أن ينجيه من القوم الظالمين.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة القصص]. لقد أراد موسى أن ينتصر لهذا المظلوم الذي استغاث به ولم يشأ أن يقتل القبطى ولم يتعمد ذلك. وعندما

(١) المعجم الوجيز.

قُدِّرَ له النجاة ووصل إلى مدين، وقص على النبي أو الرجل الصالح «شعيب» قصته وأنه مطارد ومطلوب دمه، طمأنه بنجاته من القوم الظالمين:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِتَجْزِيَنِي أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة القصص].

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الشعراء].

وعندما جاءهم موسى بالهدى والبيانات قالوا ما هذا إلا سحر مقترى، وأنهم لم يسمعوا بهذا في آبائهم الأولين. فأشار موسى في رده عليهم بأن هذا ظلم منهم وأنه لم يدع ما جاء به بل هو رسول من رب العالمين حقيق على ألا يقول إلا الحق والله يعلم أنه جاء بالهدى وأنه لا فلاح للظالمين.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا يَبْتَغِي قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّقْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة القصص].

ولقد لمس بنو إسرائيل هذه الصفة في الفرعونية وقاسوا منها الكثير. إنهم في توكلهم على الله يتوجهون إليه بالدعاء ألا يسلط فرعون وحاشيته عليهم فيزدادوا فتنة أو يفتنونهم ويضلونه، طالبين من الله ألا يعذبهم بأيدي قوم فرعون ولا يعذاب من عنده، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما سلطنا عليهم ولا عذبوا فيفتنوا بنا، ذلك أنهم قوم يتجاوزون الحدود فهم ظالمون.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة يونس].

بل إن زوجة فرعون نفسها قد لمست هذه الصفة فيه وفي حاشيته فطلبت من الله أن ينجيها منه ومن ظلمه فقالت:

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الأنبياء]. وإن الكذب بالآيات الواضحة والكفر بها لظلم واضح لا مرأى فيه:

﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا

ءَالَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ [سورة الأنفال]. وكانت العاقبة التي أخذه الله بها نكال الآخرة والأولى (الألوهية والربوبية) هو ومن عاونه من حاشيته، وجنوده جزاء اشتراكهم له ومعاونتهم إياه في هذا الظلم البين.

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَخُذُوهُ، فَنبَذْنَهُمْ فِي آيَةٍ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ [سورة القصص].

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَاءَ بِنَفْسِهِمْ تَأْوِيلَهُ، كَذَّابٌ كَذَّابٌ الَّذِينَ مِنْ قِبَلِهِمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾ [سورة يونس].

﴿ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ [سورة الزخرف].  
إن الله يمهّل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ [سورة هود].

### احتقار الآخرين والسخرية منهم والاستهزاء بهم .

إن استعلاءه وتكبره دفعاه إلى احتقار الآخرين والسخرية منهم والتقليل من شأنهم. إنه في هذا أيضاً يسرف ويتجاوز الحدود فيتعدى استعباده وتعذيبه لبني إسرائيل واحتقاره لهم إلى موسى نفسه.

فها هو ذا يستهزئ ببني إسرائيل ويصفهم بأنهم إن جاز لنا ما يدرج على السنة العوام «حتالة» فيقول في استعلاءه:

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ [سورة الشعراء].

أى طائفة قليلة لا يحسب لها حساب وقلة لا يقام لها وزن. والشرذمة الجمع الحقيق القليل والجمع شرادم، وقيل الشرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء، وثوب شرادم أى قطع<sup>(١)</sup>. أما الغيظ فهو تغير يلحق الإنسان من مكروه يصيبه، وأصل هذه الكلمة فى المصرية القديمة غاوت بمعنى غاضب، وظهرت فى عصر الدولة الحديثة.

إنه يهون من هؤلاء القوم فى تعمد منه، فهم فى نظره حفنة قليلة لا وزن لها ومع ذلك لا يخلو هذا التهوين من التخوف الذى يلازمه التحذير حتى لا يؤدى هذا التهوين إلى عدم الحيطة والاهتمام فيزداد الخطر.

(١) المعجم الوجيز.

ولعل هذه الصفة توضحها الآيات القرآنية بجلاء عند تناولها للحوار بينه وبين موسى عليه السلام فيقول:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

إنه يوصمه بالجحود والكفر على الرغم من أن موسى ذلك الرسول الكريم إنما جاء بالهدى والرشاد والنجاة. ويعود فيذكر موسى بما كان له ولآبائه من فضل عليه، مستنكراً أن يكون هذا الذي يدعو إليه جزاءً لهذا الإحسان والتفضل. ويذكره بما ارتكبه من جريمة قتل المصري، وكفره وجحوده بما وهبته له هذه البلاد من مأوى له ولأهله، وما أعطته من نعم، فهو الآن من الكافرين لنعمته عليه وتربيته إياه هو أو آبائه.

وقد يلجأ إلى ما يلجأ إليه العاجز من السباب، فيتبع هذه الإهانة لموسى بإهانة أخرى، فيعابره بفقره وضعفه أو قلة شأنه، وأنه لا ملك له ولا مال ولا سلطان أمام سلطانه الواسع وملكه لمصر وما فيها من أنهار وكنوز. فنجدده يفتخر أمام قومه بملكه لمصر تلك التي كانت فى أوج عظمتها وكانت جنات وأنهاراً لا ينازعه فيها أحد. فلقد كانت للنيل أنوع كثيرة منها ما يجرى تحت قصوره فيتباهى بهذا الملك وهذه العظمة فى إشارة إلى هوان موسى عليه السلام وفقره:

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

إنه يقول لقومه ألا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك مقارنة بهذا الفقير الضعيف، ونراه فى استخفافه واحتقاره يندفع فى وابل من سوء الأدب على الأقل فى الحوار فيصف موسى بأنه عيبى اللسان لا يكاد يعبر عما فى نفسه، فلا يفهم السامعون كلامه بينما هو طلق اللسان فيقول:

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة الزخرف].

وقيل «أم» زائدة أو بمعنى بل<sup>(١)</sup>، أى بل أنا خير من «هذا» إشارة إلى موسى احتقاراً منه له، ومضيفاً إلى ذلك احتقاراً صريحاً بقوله «الذى هو مهين» أى حقير أو ضعيف أو لا عز له، يمتهن نفسه لحقارته وضعته. (ولا يكاد يبين) يعنى لا يكاد يفصح عن كلامه للثغته

(١) تفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي، وتفسير الضبرى، وتفسير فتح القدير.

التي فى لسانه أو لا يكاد يفهم. إنه يعايره بعقدة لسانه ذلك العيب الخلقى الذى لازمه منذ صغره. ولعله فى هذا يببالغ على موسى عليه السلام، فإنه وإن كان قد أصابه فى حال صغره شىء من جهة تلك الجمرة المعروف قصتها، فقد سأل موسى ربه أن يحل عقدة من لسانه حتى يزول ذلك العيب فيُفهم منه ما يقول، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بقدر هذه الحاجة. وقد استجاب الله له فقال ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة. ولهذا بقيت بقية قال الله تعالى إخباراً عن فرعون عندما عايره بها: «أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين».

ومع هذا فالأشياء الخَلقية التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها. وفرعون لعله يدرى هذا ويعى رسالة ودعوة موسى ويفهمها، غير أنه أراد الترويح والتمويه على رعيته لظنه أنهم جهلة أغبياء<sup>(١)</sup>، إنه يعيب على العرض لا على جودة العروض. ويتحدى موسى أن يملك ولو بعض الأساور من الذهب أو رجلاً وملائكة يحمونه ويشهدون بصدقه ويعاونونه على من يخالفه، قائلاً فى تحد واستهزاء:

﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ [سورة الزخرف].

ولعل فرعون يشير ضمناً إلى نفوذ موسى الضعيف أمام نفوذه القوى المستمد من ذلك الثراء وتلك الكنوز الكثيرة من الذهب. ذلك الذهب الذى مكن للفرعون وللمصريين كثيراً من شئون الحياة، إذا استطاعوا به فى التجارة والاقتصاد شراء ما عز فى بلادهم واضطروا إلى استيراده ممن حولهم من أمم وأقطار. فكان أن تمتعوا بفضله بالرفاهية وخفض العيش<sup>(٢)</sup>. ولعل ذلك يمكن الاستدلال عليه مما تم عشية خروج بنى إسرائيل وكيف احتالوا على نساء جيرانهم من المصريين فسلبوهم حليهن ومن ذهبون ما أتاح للسامرى من أن يخرج لهم عجلاً جسداً له خوار. كذلك استطاع المصريون بالذهب أن يحرزوا من النفوذ والمنزلة السياسية والسلطان ما لا تكاد الجيوش المحاربة أن تحزره بالغايرة والعدوان، فامتد بفضله نفوذهم حيث لا تستطيع الجيوش الوصول فيما وراء مناطق نفوذهم الطبيعية مما جاور مصر من الولايات. فكان أن تولى الذهب مكان الجيش فى السياسة وإحراز النفوذ. وأصبح

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، مصر فى القرآن والسنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١،

المصريون يشترتون به الحلفاء في آسيا إذا فشل السيف. ولا يتوقف الحال من الإعزاز بالذهب على امتلاكه فحسب بل وعلى ما وصلت إليه تكنولوجيا استخراجها وفنون صياغته وتشكيله التي برع فيها المصريون براعة ملحوظة، كما أنه السلعة التي لا تبلى ولا ينطفئ بريقها. فلا عجب هنا من أن يفتخر الفرعون بأساور الذهب (صورة ٣ و ٤).

ويعود فرعون فيوصم موسى بالكذب في إطار من السخرية عندما يطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحاً عالياً ليرى إله موسى، قائلاً:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمْنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة القصص].

والصرح هو كل بناء عال وجمعه صروح، وأصل كلمة صرح في المصرية القديمة Srh «سرخ» بمعنى واجهة قصر أو بوابة معبد، وظهرت في الأسرة الثامنة عشر، وتعنى بالعربية البناء العالى الذهاب فى السماء كما يحددها المعجم الوسيط. الجزء الأول. ولقد طلب فرعون من وزيره أن يبني له برجاً عالياً من الطوب المحروق أى الآجر. ليصعد عليه فى السماء ويرى إله موسى! إمعاناً فى تكذيب موسى والاستهزاء به.

وكلمة أسباب أصلها فى المصرية القديمة isbt «أسبت» بمعنى «قبة السماء» وظهرت هذه الكلمة فى عصر الأسرة الثامنة عشر فى نصوص تل العمارنة، وهى تعنى فى العربية الفصحى كنه أو سر السماوات<sup>(١)</sup>.

وقيل إنه بنى فعلاً بناءً عالياً وصعد عليه ثم نزل فقال للناس، لم أجد الإله الذى يقول به موسى وعليه فهو من الكاذبين. وقال لهم ما علمت لكم من إله غيرى، وقيل: إنه لما بنى الصرح ارتقى فوقه وأمر بنشابة فرمى بسهم نحو السماء فرد إليه وهو مضرج دماً فقال قتلت إله موسى<sup>(٢)</sup>، وكذلك زُين له سوء عمله، وتعالى الله عما يقول.

بل إنه يتجاوز الحدود فى سوء أدبه فيوصم موسى باعتلال العقل نافيةً أن ما جاء به يتفق والمنطق، ووصفاً إياه أنه يتكلم بكلام لا يعقله ولا يعرف صحته، وكان عندهم أنه من لا يعتقد ما يعتقدون ليس بعاقل. أو ربما يحاول أن يلصق به تهمة الجنون فلا يعقل ما يقول، قائلاً فى سخرية وموجهاً حديثه إلى ملئه.

(١) رمضان السيد عبده (دكتور)، دراسة حول تطور علاقة موسى بالسلطان فى مصر فى الفترة اثنى عشرية. مجلة التاريخ والمستقبل، العدد الثانى، يونيو ٢٠٠٠.

(٢) تفسير انطربى، وتفسير القرطبى.

﴿فَتَوَلَّىٰ بَرَكِيهٖ ۖ وَقَالَ سَحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [سورة الذاريات].

وأعرض فرعون عن الإيمان وتولى بركنه أى بما كان يتقوى به من عز وجنود، والركن هو اسم لما يُركن إليه أو يعتمد عليه ويُتقوى به. ونسب ما جاء به موسى من معجزات وآيات إلى السحر أو الجن. وقال عن موسى: إنه ساحر يسحر عيون الناس أو مجنون به جنة. وقيل: إن «أو» هنا بمعنى الواو لأنه قد قال ذلك جميعاً، كقوله تعالى: «ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن انقطعت حجته بالبيان والعقل، ونفذ صبره نجده يتجاوز السباب اللفظي والسخرية من موسى واحتقاره له إلى الاستعلاء والتجبر بالوعيد والتهديد واستعمال بطشه وسلطانه فتارة بالسجن:

﴿قَالَ لِيْنِ اأَحَدَتَ اإِلَهَآ غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِّنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [سورة الشعراء].

ما هذا إلا إرهاب الفرعونية المتوقع. ويقال: إن سجن فرعون كان مخيفاً وفظيماً وأشد من القتل، لأنه كان يأخذ الرجل فيطرحه فى مكان تحت الأرض وحده فرداً لا يسمع ولا يبصر فيه أحداً<sup>(٢)</sup> ولا يخرججه حتى يموت<sup>(٣)</sup>.

ولقد كان للقدماء المصريين سجون ولكنّها لم تستعمل إلا لحجز من ينتظرون الإعدام، والحجز الوقائى. وفيما عدا ذلك لم تستعمل تلك السجون إلا لإيواء المحكوم عليهم بالعمل الإجبارى وفى أشغال الرى والمناجم والحقول<sup>(٤)</sup>، وهو ما يسمى اليوم بالأشغال الشاقة.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى حال السجن والسجين فى سورة يوسف وأنه كان مع ذلك يُقدم له الطعام يومياً، وقد يقول البعض بأنه قد يختلف حال السجن بحال الجريمة ومقدار العقوبة، ويمكن الرد على ذلك بأن الجريمة التى اتهم بها يوسف لم تكن هيئة فقد كانت متعلقة بشرف وسمعة العزيز، وجريمة صاحبيه كانت متعلقة بالملك نفسه. غير أنه يمكن القول أيضاً بأن قسوة العقاب والتشديد فى تنفيذه قد تختلف من حكم إلى آخر ومن زمن إلى آخر حيث اختلف زمن موسى عن زمن يوسف عليهما السلام.

ويعود فيهدد الفرعون موسى ولكن بالقتل هذه المرة سائلاً خاصة قومه أن يسمحوا له

(١) تفسير القرطبي، وتفسير فتح القدير.

(٢) تفسير الجلالين.

(٣) تفسير فتح القدير.

(٤) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٢٢٦.

ويطلقوا يده في قتل موسى، وربما قال هذا لأنه كان في خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب. وهو في هذا يتظاهر بالإشفاق عليهم، ويدعى أنه يخشى أن يضل موسى الناس ويغير نمط حياتهم وعاداتهم، فيسوى بينهم وبين عبيدهم من بنى إسرائيل، ويوقع بين الناس الخلاف والفتنة، أو أنه يقصد بالإفساد في الأرض ترك عبادته إلى عبادة الله الواحد.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة غافر].

ونتيجة لهذا التهديد المستمر يلجأ موسى إلى ربه معتصماً ومستجيراً به من أن يؤذيه أو قومه شتماً أو رجماً بالحجارة فيقول:

﴿وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكَ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الدخان].

إنه يستعيز بالله الذي خلقه وخلقهم من أن يصلوا إليه بسوء من قول أو فعل، من سب أو شتم أو رجم بالحجارة أو تهديد بالقتل. ويتساءل في تعجب، عندما اتفق البعض من بنى إسرائيل مع المصريين في إيذائه مثل قارون وغيره، لماذا يتعدون عليه بالإيذاء مع ما يحمله لهم من الهداية والرشد. ومع صدقه فيما جاءهم به من الرسالة:

﴿يَقَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الصف].

ويأتيهم بالآيات الواضحة فيضحكون في سخرية مجنونة:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الزخرف].

إنهم بهذه السخرية الفجة يهلكون أنفسهم في بلاهة عجيبة.

ويطلب منهم فقط أن يرسلوا معه عباد الله من بنى إسرائيل ويطلقوهم من العذاب، وهو

الأمين فيما يبلغ عن ربه من رسالة.

﴿أَنْ أَدُورَ إِلَيْكَ عِبَادَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الدخان].

فلا يستجيبون له، وأمام هذا الإعراض وهذا الإيذاء والسخرية، يطلب منهم موسى ما داموا لا يصدقونه ولا يؤمنون به ألا يتعرضوا له. وأن يكفوا عن أذاه ويتركوه وشأنه. وأن يكون في معزل عنهم فلا يكونوا معه ولا يكونوا ضده. وأن يكون هناك اتفاق للهدنة والمسائلة إلى أن يقضى الله بينهم.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْرِضُونِ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الدخان].

وَمَا طَالَ مَقَامَهُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَأَقَامَ حُجَّجَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ دَعَا مُوسَى رَبَّهُ إِذْ كَذَّبُوهُ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَمْ يُؤَدُّوا إِلَيْهِ عِبَادَ اللَّهِ، وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ، وَيَسْتَقْوُونَ بِمَالِهِمْ وَسُلْطَتِهِمْ عَلَيْهِ، بِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَعْنِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ قَوْمَ مَسْرُوفُونَ فِي الذُّنُوبِ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ كَافِرُونَ بِهِ وَلَا أَمَلَ فِيهِمْ. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَرْغُوبٌ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾ [سورة الدخان].

## الإجرام وشهوة الانتقام

أجرم أى اقتترف ذنباً، وفرعون لم يقتترف ذنباً واحداً، إنها جرائم وذنوب كثيرة فى حق نفسه ثم فى حق قومه وفى حق بنى إسرائيل.

إن تكذيبه بالآيات وعدم إيمانه بها على الرغم من وضوحها وتعددتها وتتابعها، وتماديه فى العناد، وتعذيبه لبنى إسرائيل، واستعلائه على الغير، وظلمه ومجاورته للحدود وغيرها مما اقتترف، جميعها ذنوب اقتترفها فى حق نفسه فصار من المجرمين.

والظلم لون من ألوان الإجرام وهو درجات أعلاها وأشدها عتواً الافتراء على الله، كادعاء الألوهية والربوبية وهو محض افتراء وإجرام واضح. كما يندرج تحت طائفة الإجرام التكذيب بالآيات الواضحة والتي لا لبس فيها. فهل مع هذا الإجرام يمكن أن يكون الفلاح فى الدنيا أو الآخرة.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة يونس].

إن فرعون أجرم لا شك فى ذلك واشترك معه فى هذا الإجرام من ساعده من آله، ومن يحيطون به مثل قارون وهامان. ولم يقوموا بما يتوجب عليهم القيام به من محاولة إثباته عن غيبه مثلما كان من ذلك الرجل المؤمن من آله. بل نجدهم على العكس من ذلك يرون الآيات أمامهم ثم يشتركون معه فى التكذيب بها والتعالى والاستكبار عن الإيمان بالله ليجمعهم الإجرام فى خندق واحد. قال تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [سورة يونس].

﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأعراف].

كما أشار القرآن إلى أن قارون، الذي كان من قوم موسى وكان من أقرب الأصدقاء إلى الفرعون، كان من طائفة المجرمين بتعاليه واغتراره وتكذيبه.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ فَدَّ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ ۗ مِنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة القصص].

ولقد أشار القرآن إلى هذه الصفة في فرعون وذلك في بيان صريح على لسان موسى تعليقا على ما حدث من أمر العصا والسحرة يوم الزينة والهزيمة الفاضحة للفرعون، فقال تعالى:

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۖ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة يونس].

وهذا ما أكدته السحرة أيضاً وهم يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم ويرغبونه في ثوابه الأبدى.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۗ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا فَقَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [سورة طه].

فهو بحق العدو المجرم الذي كان لنبي الله موسى عليه السلام.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان].

وتعددت أوجه إجرامه. فقد أجرم في حق قومه بتضليله لهم وتخويفهم من اتباع موسى وإرهابهم.

﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ۗ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمُ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة يونس].

والذرية القليلة أو هم أولاد الذين أرسل إليهم من طول الزمان ومات آباؤهم. ولقد اختلف في الهاء التي في (قومه) قيل: هي راجعة إلى موسى وأراد بهم ذرية قليلة من بني إسرائيل الذين كانوا بمصر آمنوا بموسى وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنواهم<sup>(١)</sup>.

وقيل<sup>(٢)</sup> الهاء راجعة إلى فرعون فهم أناس يسيرون من قوم فرعون آمنوا بموسى منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه وماشطة ابنته. وقيل: هم أقوام آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل<sup>(٣)</sup>.

(١) تفسير الطبري.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) تفسير فتح القدير.

وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بنى إسرائيل كانت المرأة من بنى إسرائيل إذا ولدت ابناً وهبته لقبطية خوفاً من القتل فنشأوا عند القبط وأسلموا فى اليوم الذى غلبت السحرة. وسموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بنى إسرائيل<sup>(١)</sup>.

وفى الحاليتين سواء كانوا من بنى إسرائيل أم من المصريين فإن القوم كانوا يخشون الفرعون وبطشه وإجرامه.

وأمام إجرام فرعون وقومه، إذ كذبوه ولم يؤمنوا به ولم يؤدوا إليه عباد الله وهموا بقتله، لم يجد موسى عليه السلام إلا أن يتوجه إلى ربه بالدعاء واصفاً إياهم بالإجرام.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَلْؤَلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [سورة الدخان].

ولعل صفة الإجرام فى الفرعونية تظهر بوضوح فى تعامل فرعون مع السحرة، ومع من آمن بموسى من بنى إسرائيل. فنجده يتفنن فى التنكيل بالسحرة مبدعاً نوعاً جديداً من القتل لم يكن معروفاً من قبل. وهو التصليب على جذوع الأشجار وقطع الأيدي والأرجل من خلاف، أى يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس. فهو أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف<sup>(٢)</sup>.

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأعراف].

لقد تملكته شهوة الانتقام المسعورة من هؤلاء الذين خذلوهم، والذين رأوا الحق أمام أعينهم فاتبعوه وآمنوا بآيات ربه لما جاءتهم دون استئذان منه. فكان جزاؤهم هذه الجريمة الغريبة والعقوبة المستحدثة التى تفتق حقد فرعون عنها. فلقد اتبع المصريون القدماء طرقاتاً مختلفة لتنفيذ عقوبة الموت كالحوزقة وقطع الرقبة والحرق والإغراق والافتراس بواسطة أحد الحيوانات المفترسة<sup>(٣)</sup>.

وفى الجرائم الأخرى كانت عقوبة البتر أو قطع العضو المتسبب فى الجريمة مثل جدد الأنف أو بتر الأذنين أو قطع اليدين أو قطع اللسان أو عقوبة الكى بالنار بالإضافة إلى عقوبة الضرب التى تعتبر عقوبة تعزيرية يقرها القانون المصرى كعقوبة للجرائم غير الكبرى. كما عرف المصرى القديم الضرب كعقوبة جسدية تمثلت فى عدد معين من الضربات كمائة

(١) تفسير البغوى.

(٢) تفسير النسفى، وتفسير ابن كثير.

(٣) منال محمود محمد محمود، الجريمة والعقاب فى مصر القديمة، مطبعة المجلس الاعلى للآثار، ٢٠٠٤.

أو مائتى ضربة ربما اختلفت تبعاً لدرجة الجرم<sup>(١)</sup>. هذا بالإضافة إلى عقوبة العزل من المنصب أو النفي، والعقوبات السالبة للحريات مثل عقوبة السجن والتي كانت عقوبة لمجموعة من الممارسات الإجرامية هي الاعتداء على الآخرين بالضرب، والهروب من الأعمال العسكرية أو الأعمال العامة المتعلقة بحقوق الدولة على مواطنيها، وعقوبة الأشغال الشاقة «العامة» في المحاجر. وكان اختيار وسيلة التنفيذ يخضع لتقدير القاضى، ربما كان ذلك وفقاً لطبيعة الجرم وأحياناً كانت هذه العقوبة يصاحبها وسائل تعذيب كالحرق مثلاً.

ولم ترد مثل هذه العقوبة الغريبة التي ابتكرها الفرعون مع السحرة إلا فى هذا الموضع وكانت سُنَّةً اتبعتها بعض المجرمين فى التاريخ الإنسانى من بعده. وأمام هذا الانتقام المتحفز للفرعون كان الثبات على الحق، فقال السحرة:

﴿ وَمَا لِنَقِمَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفَرِحَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف].

ويثبت السحرة على إيمانهم وموقفهم رغم كره الفرعون وحاشيته.

﴿ وَيُحِشُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [سورة يونس].

ومن جملة ما اقترف فرعون من آثام مع بنى إسرائيل إيذاؤه لهم واستعبادهم وإذلالهم وقتل أبنائهم قبل بعثة موسى لقول بعض الكهنة له أن مولوداً يولد فى بنى إسرائيل يكون سبباً لذهاب ملكك، ويشترك ملؤه ومن هم على دينه فى ذلك معه.

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [سورة البقرة].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [سورة إبراهيم].

وفى سفر الخروج (١ : ٢٢):

«ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً كل ابن يولد تطرحونه فى النهر، وكل بنت تستحيونها».

نعم إنه كرب وابتلاء عظيم. عبودية وعذاب وذبح للأبناء واستبقاء النساء للخدمة.

(١) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة. المرجع السابق.

وهذا الإجماع والإذلال بعد أن هدأ وسكن فترة من الزمن، يعود مرة أخرى بعد بعثة موسى عليه السلام فيتدرج من التهديد الصريح ﴿سَنُقَلِّبُ أبنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [سورة الأعراف] إلى اتخاذ القرار بالقتل فيها هي ذى شهوة الانتقام والإجماع تتلبسه فتعميه وتضله فيأمر ملأه:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة غافر].

إنهم الآن يشرعون فى التنفيذ ويشاهد بنو إسرائيل أبناءهم وهم ينتزعون من بين أيديهم ليذبحوا أمام أعينهم، إنه لأمر عظيم. وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى كان لونا من الإذلال و «التركيح» لبنى إسرائيل الذين رأوا فى بعثة موسى مع هذا الإجماع المستمر أنها تنقذهم مما هم فيه من الشقاء والعذاب والإيذاء.

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة الأعراف].

ولقد أشار العهد القديم إلى هذا فى لغة لا ترقى إلى لغة خطاب نبي لربه فقد جاء فى سفر الخروج (٥ : ٢٣) على لسان موسى:

«لماذا أرسلتني فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب وأنت لم تخلص شعبك».

وأمام هذا الإجماع السافر من الفرعونية والعذاب المستمر. يطلب بنو إسرائيل من موسى أن يكف عنهم فيخدموا المصريين فلا يتعرضوا لآذاهم، ولا يطالبهم بالخروج، وهذا ما أشار إليه العهد القديم من كلام على لسان بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر.

«أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كف عنا فنخدم المصريين. لأنه خير أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية». الخروج (الإصحاح ١٢ : ١٤).

ولقد تعدى هذا الإجماع أو أو شك إلى موسى عليه السلام فيحاول فرعون أن يستصدر قانوناً يبيح له قتل موسى أو إباحة دمه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة غافر].

ويبدو أن فرعون كان يهاب موسى ويخشى على نفسه من مغبة الاعتداء عليه ربما لإيمانه

الداخلى بقوة موسى المستمدة مما يدعو إليه من الحق وإلا لأمكنه تنفيذ ذلك بسهولة دون الحاجة إلى الاستئذان أو محاولة استصدار قرار بذلك. فنفهم من النصوص القديمة أن التعرض للفرعون بالقول الذى لا يليق به أو سبه كان أمراً بالغ الخطورة<sup>(١)</sup>. وقد سجلت قطعة أوستراكا بالمتحف المصرى بالقاهرة تحمل رقم O. Cairo 25556 من عهد سيتى الأول قضية حاول فيها الملاحظ «حاي» أن ينفى هذه التهمة الخطيرة عن نفسه. فذكر أن ثلاثة عمال وامرأة قد اتهموه بأنه شتم الملك الحاكم: «هم قالوا أشياء بخصوص جلالته الفرعون له الحياة والصحة والعافية ضد حاي: هو نطق شتائم ضد سيتى».

ثم ذكر المدعون فيما بعد أنهم لم يسمعوا مثل هذه الكلمات من الملاحظ، وأنهم ليس لديهم اتهام يحضرونه ضده. وهو ما يوضح مدى حرص الملاحظ على نفي مثل هذا الاتهام عنه، والنجاة بنفسه مما يمكن أن يصيبه من جرأء مثل هذه التهمة. وهذا ما يتطابق مع ما سجل فى الاعترافات الإنكارية فى كتاب الموتى إذ يذكر المتوفى «لم أعب فى الذات الملكية». كما كانت مخالفة أوامر العرش من الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام ولعل ما يثبت ما نقول من خشية الفرعون موسى وتردده فى قتله أنه (هو أو أبوه من قبله) قد أصدر أوامره للآباء من بنى إسرائيل بالإبلاغ عن أطفالهم الذكور فور ولادتهم وأن عقوبة الموت تنتظر من يخالف أوامره.

ونظراً لبشاعة الجرائم التى ترتكب ضد الفرعون أيا كانت صورها وأشكالها، فقد قضى المشرع المصرى القديم ألا يدفن مرتكب هذه الجرائم فى مقبرة، إشارة إلى حرمانه من الحياة الآخروية، فذكرت لوحة بالمتحف المصرى بالقاهرة تحمل رقم O. Cairo 20538 من عصر الدولة الوسطى "لا توجد مقبرة لمن يرتكب جريمة "يثور" ضد جلالته. جثمانه سيلقى فى النهر". أو ربما أنه يريد بقوله «ذرونى أقتل موسى» أنه يريد قتله بتهمة قتل القبلى تلك التهمة القديمة. فلم تكن عقوبة الإعدام أو القتل توقع إلا على الجرائم الخطيرة والتى وصفها المصرى القديم بأنها جرائم عظيمة تستحق الموت، كما وصفت أيضاً بأنها فساد كبير فى الأرض وما يمقتة كل الآلهة جميعاً. ويأتى على رأس هذه الجرائم جريمة القتل العمد وكذلك من يتواطأ مع القاتل أو يمتنع عن مساعدة القتيل «القتل بالامتناع» أو التستر على القاتل وعدم الإبلاغ عنه. كذلك جرائم الخيانة العظمى التى توجه للفرعون بكل صورها وأشكالها كالتآمر على قلب نظام الحكم أو إفشاء الأسرار الملكية أو مخالفة أوامر العرش.

(١) منال محمود محمد محمود. المرجع السابق.

وقد فرق القانون المصرى القديم تفرقة واضحة بين القتل العمد والقتل الخطأ، ولقد توصل المصريون القدماء إلى فكرة العمد الجنائى بتعبيرنا الحديث مع سبق الإصرار والترصد. وهو تعبير يحمل فى طياته توفر عنصر النية والقصد التى تسبق الفعل. فوثيقتى Lee و Rollin (عهد رمسيس الثالث) قد حكمت لنا المؤامرة التى دبرت لاغتيال رمسيس الثالث وما حاق بالجناة من جزاء، فقد أشارت أيضاً إلى ما يفيد القصد الجنائى والنية المبيتة العمدية فى محاولة قتلهم رمسيس الثالث حيث يذكر النص:

«لقد حقق معه ووجدت الحقيقة فى كل اعتداء وكل جريمة نوى قلبه أن يفعلها». فيؤكد تعبير «نوى قلبه أن يفعلها» توفر عنصر النية فى ارتكاب الجرائم وأن الواقع قد صدق على ما قد وقر فى القلب فالنية يصدقها العمل. وكان القلب يمثل فى نظر المصرى القديم العقل الذى يدبر به الأعمال وهو موضع النوايا ومحلها.

وكان القتل العمد الذى يتوفر فيه عنصرا الإصرار والترصد يجازى فى مصر القديمة بعقوبة الموت الكبرى أو الإعدام. وقد علل ديودور الصقلى ذلك بقوله: «إن المصريين كانوا يستفظعون ذلك الذى كان يعتدى على جسد أحدهم».

ولعل ما ورد فى القرآن الكريم ووصفه هذه العقوبة كجزاء للقاتل تعد أعلى الوثائق صدقاً وأعلى النصوص التى توفر لها شرط التواتر التاريخى وهو أعلى درجات الثقة التاريخية لنص ما. حيث يقول عز وجل على لسان موسى عندما فر هارباً خوفاً من أن توقع عليه عقوبة الإعدام كجزاء لقتله المصرى.

﴿ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (سورة الشعراء).

هذا الذى توضحه الآية الكريمة:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَاتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (سورة القصص).

على أن موسى بانتصاره للذى هو من شيعته وقتله المصرى (القبلى) قد تورط فى قتل عن غير عمد، ولكن الذى لا شك فيه أنه قتل. فخاف أن يطلب القصاص منه بقتل خطأ لم يتعمده ولم يرغب فيه ففر هارباً من مصر. ثم عاد إليها بعد حين من الزمن ربما بعد أن سقطت العقوبة أو الدعوى الجنائية بالتقادم أو بمضى المدة<sup>(١)</sup>. وإن كنا لم نعرف هذه المدة التى تنتهى بها أو تسقط بها العقوبة، إلا أن ما نعرفه هو أن القتل العمد كان جزاؤه الموت. ونعود إلى صفة الإجرام فى الفرعون فنقول: إن هذا الإجرام شمل كل من آمن بموسى حتى

(١) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، المرجع السابق

زوجته «آسية»، والتي سألت الله تعالى أن ينجيها من إجرامه وتعذيبه فقالت:  
 ﴿... رَبِّ آيِن لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ  
 الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة التحريم].

ولقد عذبها فرعون بأن أوتد يديها ورجليها وألقى على صدرها رحي عظيمة واستقبل بها  
 الشمس<sup>(١)</sup>. فكانت إذا تفرقت عنها من وكل بها ظللتها الملائكة إذ قالت في حال التعذيب  
 ﴿... رَبِّ آيِن لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ  
 ﴿١١﴾﴾ [سورة التحريم] (أي وتعذيبه وضلاله وطغيانه واسرافه فكشف لها فرأته فسهل  
 عليها التعذيب والظلم).

كما لم يسلم من عذابه وإجرامه ماشطة ابنته التي سبق ذكر ما حدث معها. وأوشك هذا  
 الإجرام أن يطول ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون الذي ينادى بالحق ويحمل لقومه مشاعر  
 الحب ويخاف عليهم من سوء العاقبة. فعندما يتس فرعون من أن يسكت صوته بالرجاء  
 والحيلة، يلجأ إلى أسلوب الإرهاب والإجرام، فيدبر فيما يبدو لقتل هذا الرجل وكنتم هذا  
 الصوت، لولا أن وقاه الله سيئات هذا المكر، وهو ما دلت عليه الآية الكريمة:

﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿١٥﴾﴾ [سورة غافر].  
 وإن سنن الله في كونه تقتضى أن يحيق بفرعون وآله سوء العذاب. فقد قال الله تعالى:  
 ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة  
 السجدة].

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ وَلَا يَرُدُّ  
 بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة يوسف].  
 فمأذا يتوقع أن يكون الجزاء لهؤلاء المجرمين:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة  
 القصر].

﴿وَسَوْقَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨١﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخْتَدَعَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا  
 ﴿٨٧﴾﴾ [سورة مريم].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نُفْخِحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ  
 فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة الحديد].

(١) تفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير.

فِي سِرِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٠﴾ [سورة الأعراف].  
﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ [سورة الصافات].

### التفرد بالرأى أو الديكتاتورية

ويستمر القرآن في فضح الفرعونية الملعونة، والكشف عن وجهها القبيح وتعرية مثالها. ومن هذه المثالب إعجاب فرعون برأيه والتفرد به في ديكتاتورية ظاهرة غافلاً عامة شعبه. غير عابىء بمستشاريه، فلا رأى إلا رأيه ولا علم إلا ما يعلم، متصوراً أو مضللاً لهم أنه يهديهم إلى الحق والرشاد. لقد صادر عقولهم وأفهامهم واعتبر نفسه الوحيد الذى ينطق بالحقيقة والهداية والرشد وما سواه لا يؤبه به ولا يُسمع لرأيه.

﴿ يَقُولُوا لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ﴿٣١﴾ [سورة غافر]. أى ما أريكم أيها الناس من الرأى والنصيحة إلا ما أرى لنفسى ولكم صلاحاً وصواباً، وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطِيعُ إِلَهَ اللَّهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿٣٢﴾ [سورة القصص].

إنه لا يجد من حاشيته معارض يرفع صوته بالاعتراض والرفض، ليس فيهم رجل شجاع ينطق بالحق ويتفوه بالصدق ويرفض ألوهيته سوى عدد لا يكاد يذكر، ذرية قليلة. وعلى العكس هناك الكثير والجمع الغفير ممن يتملقه ويطيعه. فيستمر فى تجاهل قومه مستخفاً بقله عقولهم وسخافة أذهانهم فهم ينساقون وراءه فى سلبية مفرطة.

ودون مشورة ودون روية أو إعمال عقل يصدر أحكاماً جزافية، فقد حصر رأيه فى موسى بأنه ساحر أو مجنون:

﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ، وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ﴿٣٣﴾ [سورة الذاريات].

بل ويستولى على ظنه أحياناً كثيرة أن موسى ساحر وكذاب:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَبْهَمُنْ أَبْنَى لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ ﴿٣٤﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلِعَ إِلَى اللَّهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأظنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ، وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ ﴿٣٧﴾ [سورة غافر].

والظن دون الاعتقاد، ولعل القول بالظن في كون موسى ساحراً مرة أو كاذباً أخرى هو أسلوب من التشكيك فهو لم يذكر ذلك على سبيل الجزم والحتم، وإنما ذكر ذلك على سبيل التشكيك ليثير الشكوك عند من يستمع لموسى ولؤمن آل فرعون. غير أنه يعود فيقرر عن موسى فيقول:

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [سورة الشعراء].

وعندما لا يجدى هذا الأسلوب ويثبت فشله يعود فيقرر ويؤكد، بعدما رأى الآية الكبرى والتفاف عصا موسى لعصى السحرة يوم الزينة يوم حشر الناس جميعاً، بأن موسى ساحر عليم بفنون السحر وأصوله.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَدِيرٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الشعراء].

﴿ قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ، لَكَبِيرٌ كُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ [سورة طه].

إنه يروج معلومات مضللة عن موسى مدعياً عليه أنه ربما يكون مجنوناً مختل العقل، أو أصابه سحر فهو يهذى بكلام غريب ويكذب في الحديث، بل إنه ساحر وحاذق في السحر فهو الذي علم السحرة فنون السحر فهو كبيرهم ومعلمهم.

وتصل به ذروة الديكتاتورية، المصحوبة باعتقاده أو ظنه أنه إله، إلى وضع القيود على حرية المعتقد فنجده يسأل السحرة بعد إيمانهم.

﴿ قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ، لَكَبِيرٌ كُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ [سورة طه].

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُمْ بِهِ، قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمْوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْمُونَ ﴾ [سورة الأعراف].

﴿ قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ، لَكَبِيرٌ كُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الشعراء].

إن حرية العقيدة والإيمان في نظره تحتاج إلى إذن منه. إنها الديكتاتورية الطاغية، التي لا تمنعه من أن يرتدى أحياناً مسوح الديمقراطية ويشاور بطانته وملاه متسائلاً، ومتظاهراً بالشورى أو متحيراً، «أشيروا على فيه ماذا أصنع معه؟»، على الرغم من أنه قد صرح برأيه في موسى بأنه ساحر عليم ولكن كيف سيتعامل معه:

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

ولقد تبعه السادة من قومه موافقين لقوله «إن هذا لساحر عليم» وقالوا كعقالته.

﴿ قَالَ أَمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

إنها الديكتاتورية التي تجد من يروبوها ويشعل نارها ويغذيها ولا تجد من يفضحها ويضرب على يديها.

### اتباعه بطانة السوء واتباعهم له

وكعادة كل عصر ومصر هناك من الحاشية والبطانة من يستفيد من طغيان الحاكم وضلاله، ويزيد النار اشتعالاً حتى يجنى من وراء ذلك ما يزيده ثروة أو سلطة أو منفعة ما. وهذا ما كان من بطانة وحاشية الفرعون يضلون ويضللون. وقد يحتوى مدلول البطانة هنا على الأهل (آل) أو القوم أو الملأ أو الجنود. وهو ما أشار إليه القرآن في مواضع عديدة للدلالة على ذلك، ففي ١٣ موضعاً ذكر «آل فرعون»، وفي ١١ موضعاً ذكر «فرعون وملئه»، وفي ٥ مواضع ذكر «فرعون وقومه»، وفي موضعين ذكر «فرعون وجنوده»، وفي ثلاثة مواضع «فرعون وهامان»، وفي موضع واحد ذكر «فرعون ومن معه»، وفي موضع واحد «فرعون وهامان وجنودهما».

ولعل المقصود بكلمة «آل» الأهل والعيال والأتباع والأنصار، والمقصود بكلمة «قومه» أقاربه ومن يكونون بمنزلتهم تبعاً له، أما جنوده فهم أنصاره وأعوانه، مما يدل على أن آل فرعون وملأه وقومه وجنوده كانوا فئة من أعوانه وأتباعه وعشيرته من بنى جنسه ومن بنى إسرائيل وكانوا محدودى العدد. وهذه المعانى جميعاً تشير إلى طائفة أو فئة ممن لم يؤمنوا بموسى ولا تشير إلى شعب مصر جملة. هذه الطائفة أو الفئة نعنى بها البطانة وهى التى تُضِلُّ وتُضَلُّ.

وهؤلاء هم الذين نجدهم يقولون لفرعون متظاهرين بالنصيحة والحرص على مصلحته: أتدع موسى وقومه من بنى إسرائيل كى يفسدوا خدمك وعبيدك عليك فى أرضك مصر، ويدع موسى خدمتك وعبادتك أو عبادة آلهتك. ترى هل هم يشفقون على الفرعون حقاً مما يصفونه من إفساد لموسى وقومه؟!

﴿ وَقَالَ أَمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ وَءَالِهَتِكَ قَالَ سَتُنْقِلُ

أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَعِجِي. نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٤٧﴾ [سورة الأعراف].

إنهم على الرغم مما يبصرونه من الحق وما يرونه من الآيات يوحون إليه باتباع الضلال، إنهم يدفعونه إلى الهاوية وهو يقودهم إليها، فتارة يحرضونه على موسى وتارة يستخفهم فيطيعونه، إنهم قوم فاسقون حقا. فاستخف عقولهم ودعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، فجمع قومه ودعاهم إلى الاعتراف له بالإلهوية فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم.

﴿ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الزخرف]. لقد أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة.

﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ، وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة طه].

ومع ذلك يتبعون نهجه ويسلكون مسلكه في العى. ويسيرون وراءه وليس فى ذلك رشد ولا هدى وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد. وكما أنهم اتبعوا أمره فى الدنيا وكان قائدهم وزعيمهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها ﴿ إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَأِيَهُ، فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدُهُمُ النَّارَ وَيَسَّ أَلْوَرْدُ الْمَوْزُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [سورة هود].

وكذلك شأن المتبوعين إنهم يشاركون من يتبعونه فى الإثم، ولهم مثلهم ضعف من العذاب يوم القيامة كما قال تعالى: « لكل ضعف ولكن لا تعلمون »، حينما يقولون محاولين درء الذنب عنهم والتخفيف مما يجدون من عذاب:

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِنْ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة الأحزاب].

إنهم يشاركونه الفرعنة والفرعونية الملعونة، ويحملون ما يحمل من صفاتها. إنهم يشاركونه التكبر والاستعلاء. يشاركونه الظن أو الاعتقاد بأنهم فوق المسألة فلا يحاسبون على ما يقتربون. واستكبر هو وجنوده وملؤه فى أرض مصر عن تصديق موسى واتباعه إلى ما دعاهم إليه من توحيد الله والإقرار بالعبودية له. وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يُبعثون ولا ثواب ولا عقاب على الرغم مما فى معتقدات المصريين القدماء من بعث وخلود فى العالم الآخر. فنجدهم وقد ركبوا أهواءهم وعاندوا موسى:

﴿ وَأَسْتَكْبَرُوا هُوَ وَجُنُودُهُ، فِي الْأَرْضِ بِعَكْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

[سورة القصص].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ [سورة المؤمنون].

واستغلوا ما وهبهم الله من ثروة وأموال في الفساد والضلال، ويغرر فرعون بهم ويستغل قلة عقولهم وسخافة أذهانهم فيصدقونه، على الرغم مما رأوا من الحق والآيات وما كان عليه من ضلالة وكفر، فيرون ويرى معهم معجزة اليد ثم معجزة العصا، ثم تتوالى الآيات التسع ولا يؤمنون ويقعون في مستنقع الفسق بإطاعتهم له.

﴿أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَٰلِكَ بُرْهَانُنَا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ [سورة القصص].

﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تَمَعِ مَا يَدَّبُ إِلَيْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ [سورة النمل].

إنهم يشاركونه في السخرية من بنى إسرائيل واحتقارهم، وينظرون إليهم على أنهم أدنى منزلة وعبيداً عندهم. ويرونهم مصدر شؤم، فإذا جاءتهم النعمة أو الخصب والسعة والخير ادعوه لأنفسهم وقالوا لنا هذه، وإذا جاء الشر أو الجذب والقحط والبلاء أرجعوه إلى موسى وقومه.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ [سورة الأعراف].

ومن الملفت في الآيات القرآنية أنهم يرددون في ببغائية عمياء ما يقول. فإذا قال عن موسى إنه ساحر كرروا ما قال، إن عقولهم في آذانهم يرددون ما يسمعون. بل إنهم قد ينصهرون في فرعونيته فيصير القول واحدا لا تستطيع أن تفرق فيه بين قول فرعون من قول الملأ من قول الشعب، كما في قوله تعالى:

﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِن هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [سورة الشعراء].

﴿قَالَ الْمَلَآئِكُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ [سورة الأعراف].

وإذا كذب بالآيات قالوا لن نؤمن بها، ويتمادون في الضلال ويتوعدون بعدم تصديق

هذه الآيات مهما كانت. وهم فى ذلك يحذون حذوه ويسلكون طريقه فى ضلال واضح وتبعية عمياء.

﴿وَلَقَدْ آرَيْتَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة طه].

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ يٰمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة الأعراف].  
ويبدو أن القوم جميعاً - الملأ والفرعون - قد اتخذوا موقفاً واحداً من موسى عليه السلام إلى الحد الذى يأتى فيه ذكر الفرعون بصفته الأمة كلها.

﴿كَذَّبَتْ قَلْبَهُمْ قَوْمٌ نُّوحٌ وَأَصْحَبُ الرَّيْسِ وَشُمُودٌ ﴿١٣﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣٢﴾ وَأَصْحَابُ الْآيِكَةِ وَقَوْمٌ تُبِعَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ كَذَّبَ وَوَعْدٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة ق].

فكل ما جاء ذكره فى الآيات هم أقوام وأمم ما عدا فرعون الذى جاء بينهم بصفة الأمة. إن فرعون وآله وجنوده وملأه أو بطانته يتسربلون فى رداء الفرعونية الملعونة وتتغشاهم.

### إكراه الآخرين وتسخيرهم لخدمته

وتطفو صفات أخرى للفرعونية يمكن إدراكها من إشارات القرآن العابرة، منها ما يمكن أن يستنبط من السياق القرآنى فى قصة السحرة أن فرعون مارس الضغط عليهم، وأكرههم على تنفيذ ما يريد:

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة طه].

فلقد أكرههم فرعون على تعلم السحر والعمل به فقيلاً: إنه قد أكرههم على تعلمه صغاراً. فقيلاً<sup>(١)</sup> إن فرعون أخذ أربعين غلاماً من بنى إسرائيل فأمر أن يتعلموا السحر بالفرما (العريش الآن). وقال علموهم تعليماً لا يعلمه أحد فى الأرض. فكانوا من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا:

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة طه].

إنه يكرههم ويسخرهم لخدمته، ويستغل سلطته ونفوذه لإطاعة أوامره. ونجدهم يستفسرون أو يتساءلون عما إذا كان لهم أجر مقابل ما سيقومون به من خدمة للفرعون، أو بالأحرى مكافأة لهم إن غلبوا موسى.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لِنَأْتِيَنَّكَ لِنَكْفُرَ بِالْغَالِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشعراء].

(١) تفسير ابن كثير. وتفسير القرطبي.

إنهم على ما يعرفون عنه من تسخيرهِ للآخرين لخدمته وتثبيت أركان ملكه دون أجر أو مكافأة فإنهم قد تجرأوا هنا وطلبوا الأجر منه، يتمنون عليه وهو يمينهم ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لِمَنْ الْمُقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء]. وستكونون من المقربين عندي في المرتبة والجاه فتكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج<sup>(١)</sup>.

ولعل تجرأهم هذا يرجع إلى استشعارهم مدى حاجته إليهم في مواجهة موسى ومدى ثقنتهم بسحرهم في تحقيق الغلبة على موسى.

وليس أدل على ما كان يقوم به من تسخير الغير لخدمته ما قام من تسخير بنى إسرائيل لبناء مدينتيه «برعمسيس وفيثوم» اللتين أشارت إليهما التوراة.

«... فبنوا له مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس» (الخروج: ١: ١١).

ولقد أسهبت التوراة في وصف مدى ما تعرض له بنى إسرائيل من إذلال وتسخير على أيدي الفرعون بأوصاف كثيرة منها المذلة والضيق والاستعباد والأثقال، كما فى الخروج (٣: ٧).

«قد رأيت مذلة شعبي الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم إنى علمت أوجاعهم».

وفى الخروج (٣: ٩): «ورأيت أيضاً الضيقة التى يضايقهم بها المصريون».

وفى الخروج (٣: ١٧): «فقلت أصدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحيويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً».

وفى الخروج (٦: ٥ - ٦): «وأنا أيضاً قد سمعت أنين بنى إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون».

«وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة».

إنه الاستغلال والتسخير لفئة ضعيفة ليس لكونهم فى مرتبة أقل من مرتبة المصريين أولأنهم أدنى منهم منزلة كما كانوا ينظرون إليهم بل ولأنهم على غير ملتهم وخالفوا عقيدتهم.

## الكيد

الكيد يعنى القصد خفية إلى إيذاء الغير، وكاد فلاناً كيداً أى مكر به وأراده بسوء، والكيد

(١) تفسير النسفى.

من الله يعنى التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق<sup>(١)</sup>.

ومن بلاغة القرآن وصفه للسحرة الذين جمعهم فرعون بالكيد دون التصريح بهم فيما يعرف لغوياً بالاستعارة التصريحية حيث يحذف المشبه (السحرة) ويأتى بالمشبه به (الكيد). إنه يجمع كل مكره وحيله وكيده فى هؤلاء السحرة فصاروا علماً على هذا الكيد، وكأنه يجمع كل أسلحته من مكر ودهاء وحيل فى حلبة الصراع هذه.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَنَّىٰ ۖ ﴾ [سورة طه].

﴿ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ۖ ﴾ [سورة طه].

ويتوجه إلى السحرة محاولاً أن ينقل هذا الكيد الذى يملؤه ويستولى عليه إليهم، وأن يصير هذا السحر الذى يتسلحون به أيضاً إلى كيد ومكر فيعزمون على الكيد والمكر بموسى من غير اختلاف بينهم فيه.

﴿ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ۖ ﴾ [سورة طه].

وهنا ينتصر الحق على الباطل ويضيع كيد السحرة ومكرهم أمام كيد الله ومكره. ﴿ إِنَّهُمْ

يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ ﴾ [سورة الطارق].

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ۗ ﴾ [سورة الأنفال].

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۗ ﴾ [سورة غافر].

وهكذا يصير كيد فرعون ومكره واحتيااله إلى زوال وبطلان وحق به وبحاشيته ما يريده الله عز وجل.

ومن كيده ما دفعه إلى أن كلف وزيره أن يبني صرحاً له ليرى إله موسى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنَىٓ لِى صَرْحًا لَعَلَّىٓ أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ ۖ ﴾ [سورة القصص] ﴿ اسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَآظُنُّهُ كَذِبًا ۖ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۗ ﴾ [سورة غافر].

ولقد زين الله له سوء عمله وكان كيده إلى هلاك وزوال.

(١) المعجم الوجيز.

## الضلال والتضليل

وهما صفتان جمعتهما في الفرعونية الملعونة ، فقد ضل فرعون عن الهدى وعن اتباع الحق وأضل قومه وما هداهم. فيها هو يتظاهر بالحرص على مصلحة شعبه وعلى مقدراته والنعمة التي كانوا فيها فاكهين ، وعلى استقرار بلاده وما وصلت إليه من رقى ومقام كريم.

إنه يستخف قومه أو يستفزهم ويدفعهم إلى اتخاذ موقف موحد تجاه موسى متظاهراً بأنهم أصحاب الرأي والمصلحة والموقف ، طارحاً ذلك في استفتاء على الشعب أو على خاصة قومه وملئه : (فماذا تأمرون) ، وكانت النتيجة أن ردوا الموقف إلى فرعون لأنهم ليسوا أهلاً لأن يكون لهم رأى أو لأن يتحملوا تبعته. فيردون الجميل إلى فرعون الذى يأخذ برأيهم.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرِ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَأَ الْهَتَكَ قَالَ سَنُقِيلُ آتَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وهكذا كانت النتيجة لهؤلاء الذين لم يمارسوا الديمقراطية ولم يتعدوا إبداء الرأي ، وكان لا بد من إرضائهم والاستجابة لمطالبهم ، وزاد فى ذلك بطمأننتهم على الوضع بأنه قاهر لهؤلاء الشردمة للتأكيد على أنهم هم أصحاب الرأي والمصلحة.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرِ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَأَ الْهَتَكَ قَالَ سَنُقِيلُ آتَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

إنه يخاف عليهم من خطر الدعوة التي يدعو إليها موسى ويخشى عليهم من تبديل دينهم. ويخشى أن يفسد موسى عليهم حياتهم بما يستحدثه من قيم وعادات جديدة.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

غير أنه فى الأصل يخشى أن تضيع هيئته ومكانته ، وأن يهجروا عبادته ، ويكتشفوا زيف ألوهيته ، إنها استراتيجية التضليل للفرعونية الملعونة.

ونجده يلجأ إلى حيلة التضليل والخداع بعد أن فشل فى المحاجاة العلنية ، وبعد أن خذله منطقته وسحرته وضعفت حجته أمام موسى وأخيه. فيقول:

﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّا هَذَا لسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

بل ويستهوى ذلك حاشيته وكتيبة التضليل الإعلامي له فيرددون ما يقول، مدعين أن مراد موسى وأخيه هارون أن يجتمع الناس إليهما للوصول إلى الحكم، والاستعانة ببنى إسرائيل في اجتثاث المصريين وإخراجهم من أرضهم التي يعيشون فيها فى جنات وعيون، ويذهبون بسنتهم وأسلوبهم فى الحياة ومعيشتهم المثلى، أو كما يطلق عليه بعض الغربيين فى عصرنا الحديث "منظومة القيم".

﴿ قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴾ [سورة طه].

وهو ظن لا شك فى كذبه لأن بنى إسرائيل فى نظر فرعون نفسه ما هم إلا شرذمة قليلون.

ونلاحظ من النصوص القرآنية ضمير الملكية المتكرر «دينكم..أرضكم...طريقتكم». إن فرعون وحاشيته يركزون فى تضليلهم للقوم على نقاط حساسة لديهم كتمسكهم بدينهم وما وجدوا عليه آباءهم، وارتباطهم بأرضهم وموطنهم، وتعلقهم بأسلوب حياتهم والرفاهية التى يعيشون فيها. فقد كانوا يعيشون فى مقام كريم ويرفلون فى نعمة كانوا فيها فاكهين، وهو من الأمور التى يحرصون على الحفاظ عليها والزود عنها ولا يقبلون بتغييرها . فنجده يشوش على هزيمته أمام موسى وإيمان السحرة وكفرهم بألوهيته، بأنهم جميعاً - موسى والسحرة - قد اتفقوا على المصريين ليخرجوهم من هذه المدينة أو المدينة المتحضرة.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكَ ءِذَا هَذَا لَكَ ءِذَا هَذَا لَكَ مَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف].

وربما يبعى من وراء قوله هذا التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق، حتى أنه يقول عن موسى وعنهم أنه هو الذى علمهم السحر على الرغم من أن موسى لم يجتمع بهم ولم يجتمعوا به من قبل.

إنه هو وحاشيته يخشون أن يصرفهم موسى عما وجدوا عليه آباءهم فيصير لموسى العزة والكبرياء ومن ثم الغلبة مصرين على عدم الإيمان به، إنه يطرق على نفس المواطن الحساسة لدى القوم.

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس].

بل إن فرعون نفسه هو الذى يراوغ ويلفت قومه عما جاء به موسى ويصرف اهتمامهم عن دعوته بمقارنته بين ما يملك من السلطان والملك وما يملك موسى عندما يقول فى غرور واستكبار ومراوغة لرفض الدلائل والبيانات التى قدمها موسى:

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الزخرف].

إنها آلة التضليل المحكم والتى لا تتوقف ولا تكف.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [سورة طه].

### الإفساد فى الأرض

أفسد الشيء: أتلفه، وجعله فاسداً أى تالفاً، والفساد هو التلف والعطب، والمفسدة: الضرر، والإفساد هو الشر الظاهر العام<sup>(١)</sup>. ومن هذا التعريف فإن الإفساد لا شك يشمل الظلم والاستعلاء والتكبر والتجبر والتأله والإجرام والتضليل واستعباد الضعفاء وتسخيرهم فى خدمته، ويمكن القول هو الفرعونية نفسها.

ولقد ذكر لفظ المفسدين فى القرآن فى ١٣ موضعاً. ستة مواضع منها تتعلق بالفرعونية الملعونة، ثلاثة منها تشير إلى فرعون وتضعه فى زمرة المفسدين وذلك فى الآيات التالية:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [سورة القصص].

﴿وَأَلْقَى الْقُرْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة يونس].

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة يونس].

وفى موضع واحد للإشارة إلى فرعون وملئه وظلمهم بالآيات.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة الأعراف].

وفى موضع واحد للدلالة على فرعون وقومه، وذلك فى قوله تعالى:

(١) المعجم الوجيز.

﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة النمل].

وهناك موضع يفيد بأن قارون قد صاحب الفرعون وشاركه في هذه الصفة حيث لمس الناس منه ذلك ونصح قومه فقالوا له :

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة القصص] ،  
غير أن تماديه واتباعه للفرعون في الفساد والإفساد كان من نتيجته أن خسف الله به وبادره (أو قصره) الأرض، هذا في الدنيا أما في الآخرة فليس له نصيب فيها.  
﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة القصص].

ونعود للفرعون الذى أفسد فى الأرض، أرض مصر، فقتل من لا يستحق من القتل، واستعبد من ليس له استعباده، وتجبر فى الأرض على أهلها وتكبر على عبادة ربه، وجعل الناس شيعاً وفاقاً فيفضل طائفة على أخرى ويذيق طائفة منهم أشد العذاب فيقتل أبناءهم ويستخدم نساءهم.

والحقيقة أن بنى إسرائيل تحت فرعون كانوا يعانون من بلاءٍ واختبار عظيم من ربهم، فلقد استضعفهم الفرعون وسامهم العذاب الشديد. ذلك العذاب الذى وصفه الله تعالى فى القرآن الكريم بـ «سوء العذاب» تارة وبـ «العذاب المهين» أو «البلاء» تارة أخرى. فقد وُصف العذاب بالسوء فى القرآن الكريم فى تسعة مواضع منها ثلاثة تتعلق بالعذاب الذى أذاقه فرعون لبنى إسرائيل وذلك فى الآيات التالية :

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَ كُفٍّ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُفٍّ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [سورة البقرة].

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَ كُفٍّ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُفٍّ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الأعراف].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَ كُفٍّ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُفٍّ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ

مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ [سورة إبراهيم].

ويبدو أن جبلة بنى إسرائيل وما رُكِبَ فيهم من طباع استوجبت أن يتعرضوا من حين إلى آخر لسوء العذاب، وكتب الله عليهم ذلك حتى يوم القيامة، فقد قال الله تعالى:

﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [سورة الأعراف].

وبالإضافة إلى ما وُصف به هذا العذاب الذى لاقاه بنى إسرائيل على يد فرعون بأنه سوء العذاب، والذى يتفق فى صفته مع ما سيلاقيه الكفار يوم القيامة. فإنه قد وُصف أيضاً فى القرآن بـ «العذاب المهين» (بالتعريف دون التنكير). وهذا الوصف للعذاب (المهين) ذكر فى موضعين فى القرآن الكريم: اختص أحدهما بوصف العذاب الذى تعرض له بنو إسرائيل على يد الفرعون.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الدخان].

واختص الموضع الآخر بوصف العذاب الذى كانت تعانيه الجن تحت سليمان عليه السلام.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِن سَائِغِهِ فَلَمَّا خَرَ تَبِثَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة سبأ].

ولعل الإفساد يشمل الكثير من الأفعال والتصرفات، فإن من يسعى فى أرض الله بما يكره الله ويجهر بمعصيته، ويستعين بالسحر وهو تمويه لا حقيقة له ضد الحق الظاهر فإنما يفسد فى الأرض، وإن الله لا يصلح عمل المفسدين أبداً.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة يونس].

وإن من يرى الآيات تتوالى أمامه واضحة جلية لكل ذى عينين ولا يؤمن بها، وخاصة إذا كان صاحب سلطة ومكانة كفرعون وحاشيته وذا تأثير على جموع الشعب والجماهير المغلوبة على أمرها، ثم يستخدم هذه السلطة لفرض رأيه وإجبار هذه الجموع على اتباعه، هو إذاً يفسد فى الأرض ولا ريب.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ يَتْلِي آيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ [سورة الأعراف].

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ وَحَمَلُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٤﴾ [سورة النمل].

وعندما يطغى الفساد ويستفحل ولا يجد له رادعا يستوجب العقاب العاجل الذى لا بد منه، فيكون العذاب صَبًّا.

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ﴿١٠١﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١٠١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٠٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمُرْصَادِ ﴿١٠٤﴾ [سورة الفجر].

وتتكشف طبيعة المفسد عندما يحين العقاب وتكون العاقبة، فجدده يجهر بالتوبة حيث لم يبق له اختيار وقد قضى عمره فى إفساد مستمر.

﴿ ءَأَلْفَنُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠١﴾ [سورة يونس].  
إن هذا لا يعقل ولا يكون.

### العناد والكفر بالآيات

بدأ موسى عليه السلام بتبليغ رسالته التى كلفه الله بها وبصحبته أخوه هارون إلى فرعون فى حديث هادئ لين. وكانت الرسالة ذات شقين الأول منها دعوة فرعون إلى الإيمان، والثانى المطالبة بإطلاق بنى إسرائيل ليخرجوا من مصر. ﴿ وَقَالَ مُوسَى يُنْفِرْعُونَ إِلَيَّ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٢﴾ [سورة الأعراف].

وفى العهد القديم «ثم كلم الرب موسى قائلاً، ادخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بنى إسرائيل من أرضه» (الخروج ٦ : ١٠ - ١١).

فأخذ فرعون يفتش فى ذاكرته عما يتعلق بمن جاء له بدين جديد ليغير عليهم نظام حياتهم، فسرد على موسى ماضيه وكيف تربى فى البيت الفرعونى وكيف أحسنوا إليه:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ [سورة الشعراء].

وهنا يرد موسى متسائلاً كيف يمنُّ عليه وحده بالتربية، بينما يذيق قومه سوء العذاب ويستعبدهم:

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ [سورة الشعراء].

فِيذَكِّرُهُ فِرْعَوْنَ بِقَتْلِهِ لِلْقِبْطِيِّ وَهَرُوبِهِ سِنِينَ عَدِيدَةً ﴿١٩﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْبَنِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ [سورة الشعراء]، فيرد موسى بأنه فعل ذلك وهو من الجاهلين فهو لم يكن للقتل قصد لديه ولا نية.

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ [سورة الشعراء].

ويبدأ حوار ومناقشة شفهية بين فرعون وموسى، يوضح فيها موسى مضمون رسالته الإلهية الداعية إلى الوجدانية، يقابله المنطق الفرعوني الجاهل المخادع المكابر. ويهزأ فرعون لقول موسى بوجود إله غيره، ويسأل عن ماهية هذا الإله؟ فيرد موسى: هو رب العالمين ويسرد في ذلك الحوار الذي سجله القرآن صفات الربوبية الحق:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾

﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٣﴾

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٦﴾

﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾ [سورة الشعراء].

وعلى الرغم من محاولة فرعون الخروج من إطار الحوار المنطقي والمحاكاة العقلية إلى السباب اللفظي ملصقاً بموسى صفة الجنون قائلاً لقومه إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، فما كان من موسى، والذي فهم مقصد فرعون، إلا أن تجاهله واستمر في عرض دعوته، وأخذ يعدد نعم الله على فرعون وقومه:

﴿ الَّذِي جَعَلْ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَبِيلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٢٨﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

﴿ مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٣٠﴾ [سورة طه].

فما كان من فرعون أمام هذه الردود المفحمة والمنطق الواضح إلا أن يلجأ الى التهديد بالسجن قائلاً له :

﴿ قَالَ لِيْنِ أَخَذْتِ إِلَهَآ غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِيْنَ ﴾ (١٦) [سورة الشعراء].

حينئذ أدرك موسى أنه لا أمل من محاولة إقناع فرعون بالدليل العقلي، ولا بد من تقديم شىء مادي ملموس يُرى ويُلاحظ فلا تكون له بعد ذلك حجة. فكانت الآيات الواضحات التى لا لبس فيها.

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣٢) وَزَرَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿٣٣﴾ [سورة الشعراء].

فألقي موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان هائل بقم كبير وشكل مخيف يبعث على الرهبة والفرع. ثم وضع يده فى جيبه وأخرجها فإذا نور ساطع يضىء بالليل والنهار كضوء الشمس أو القمر من غير سوء مخالفة للونه، وقد كان موسى عليه السلام رجلاً آدم شديد السمرة، وأخرجها فخرجت كما كانت على لونه.

ولقد وصف القرآن تحول عصا موسى مرة بالجان، وهو نوع من الحيات صغير أكحل العينين ضارب إلى الصفرة لا يؤذى<sup>(١)</sup>، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلِي مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ (٣١) [سورة القصص].

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلِي مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١٠) [سورة النمل].

ومرة بالثعبان، وهو الاسم العام لكل حيوان من مرتبة الثعابين رتبة الحرشفيات من الزواحف، ويتميز بجسمه الطويل أو الكبير غير ذى أرجل المغطى بحراشيف أو قشور قرنية. وذلك عند الاستعانة بها كآية على نبوته وأنه جاء بما جاء به من ربه، وهذا فى قوله تعالى :

﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٧٧) [سورة الأعراف] و ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣٢) [سورة الشعراء].

ومرة بالحية، وهو جنس يشمل الكبير والصغير، كما فى قوله تعالى :

﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ (٢٠) [سورة طه].

(١) المعجم الوجيز.

والملفت أن تحولها إلى ثعبان لم يكن إلا عند منازلة السحرة يوم الزينة. وأمام هذا الثعبان الهائل المفزع، وهذا النور المتلألئ الذى يأخذ باللب بهت الجميع وخفتت الأصوات ما بين الدهشة والتعجب، وذهل فرعون ولكنه لم يتراجع عما فى رأسه من كفر وعناد. فبادر إلى التكذيب وروج على قومه أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ثم هيجهم وحرصهم على مخالفته والكفر به. مدعياً أن موسى ساحر ماهر وأن ما جاء به موسى من البيئات نوعاً من السحر الذى اشتهر به بعض الكهنة فى ذلك الزمان، قائلاً للملأ حوله إن هذا لساحر عليم جاء لكى يخرجكم من أرضكم بسحره، فتوافقه حاشيته وملؤه على أن موسى ساحر عليم. بل زادوا على ذلك بأنه سحر مقتعل مصنوع وأنهم ما سمعوا به أو عرفوه من قبل كما لم يسمعوا ما يدعوهم إليه موسى من عبادة رب العالمين فى أسلافهم وآبائهم الأولين الذين مضوا قبلهم.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴾ [سورة القصص].

وينبغى أن نذكر أن السحر لعب دوراً هاماً فى الحياة اليومية بمصر القديمة. وكان دفاعياً بصفة عامة وعدائياً فى حالات نادرة. واستعمل لمصلحة الدولة والمعابد ولفائدة المرضى ومن كانوا يخافون الإصابة بالمرض. وكان وقاية ضد الأشباح وضد الحوادث، وكان يقى الموتى شر الشياطين فى العالم السفلى، ويجنبهم الموت ثانية ويحفظهم من الجوع إذا أهمل أقاربهم الأحياء تزويدهم بالتقدمات أو القرابين<sup>(١)</sup>، هذا فى اعتقادهم. وفى بعض الأحيان كان يضمن النصر فى المواقع الحربية، والحظ الحسن. أى إنهم كانوا يستعينون به على قضاء حاجاتهم وتحقيق أمانيتهم، ووصول الناس إلى ما يبتغون من مال وسلطان<sup>(٢)</sup>. ويمكن القول بصفة عامة بأن السحر كان من أهم ضروريات الحياة فى مصر الفرعونية.

ولقد كان فى عقيدة المصريين أن لكل شىء روحاً تشبه روح الإنسان وتبعث فيه الحياة. وأن لكل شىء من الموجودات الطبيعية حياة وإرادة وضميراً، ولذلك تسلطت الطبيعة على الإنسان ومن هنا كان سلطان الساحر على النفوس.

وكان من عقائدهم أن لكل إنسان قريناً من الجن يصحبه فى الحياة ثم يتبعه فى الآخرة، وعرف هذا القرين فى اللغة المصرية القديمة بالـ «كا» وأن لكل الأجسام المادية والحيوانية

(١) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، المرجع السابق

(٢) أنطون زكرى، الأدب والدين عند قدماء المصريين، ١٩٩٢.

روحاً. وكان للسحر عند المصريين القدماء علم له أصول ترجع إلى أقدم العصور، وكانت هناك مدارس للسحر تسمى ببيوت العلم والحياة، وكان الفراعنة يضعون هذه المدارس تحت رعايتهم وعنايتهم بل كان الفرعون نفسه يلقب برئيس السحرة<sup>(١)</sup>. وكانوا يزودون تاجه بالسحر، وكان هو الربة «العظيمة السحر»<sup>(٢)</sup>.

أما السحرة فكانوا ينقسمون إلى طائفتين: طائفة شرعية تعترف لهم الحكومة بمباشرة السحر ويثقون بهم ويلقبونهم بكتبة بيت الملك وكتبة الحياة، ويدعونهم لتفسير أحلامهم والانتصار على أعدائهم. وكان الساحر فى هذه الطائفة لا يمارس هذا السحر إلا بعد التمرن الطويل ومضى مدة طويلة فى حسن السيرة والسريرة، والتمسك بالطهارة والعفاف، والامتناع عن أكل اللحوم والأسماك، والانفراد فى الخلوة كل أيام حياته، ولا يجوز أن يحترف حرفة أو مهنة أخرى حتى لا تشغله عن مهام وظيفته.

والطائفة الأخرى هم السحرة غير الشرعيين الذين يتعلمون السحر تقليداً، ولا تعترف لهم الحكومة بمباشرة أعمالهم وتعاقبهم إذا باشروا شيئاً من ذلك بدون تصريح، وربما حكم عليهم بالإعدام. فمما ذكر فى بردية Lee بدار الكتب الأهلية بباريس أن ساحراً أراد أن ينتقم من قوم فصنع تماثيل من الشمع وتلا عليها العزائم السحرية، فأوقع بهم الأذى والضرر؛ ثم رُفع أمره إلى الملك فكان جزاؤه الإعدام<sup>(٣)</sup>.

وكان المصريون فيما تشهد به الأقاويص القديمة يحبون أحاديث السحر وخوارق الأعمال ففيما ينسب إلى خوفو فى بردية «وستكار» من حبه السحر وإقباله عليه وما يصور لنا كذلك ما تعلقته به أوهام الناس فى العصور القديمة من خيالات يردونها إلى السحر، أن بنيه جلسوا يتحدثون إليه ويسمرون معه حيث أخذ كل واحد منهم يروى قصة من غرائب ما روى عن أسلافه من الملوك والكهنة وهو يستمع إليهم قرير العين منشرح الصدر. إذ وقف خفرع فحدثه عن كاهن يدعى «أوبا أونز» بلغه أن امرأته تعلقته بفتى فى المدينة كان يقبل فينقق معها سحابة النهار فى جوسق منعزل فى الحديقة عن بحيرة الدار، فإذا قضى منها وطره نزل إلى البحيرة يغتسل، فعمد الكاهن فصنع من الشمع كهيئة التمساح ثم ألقاه فى البحيرة بعد أن قرأ عليه من عزائم السحر ما حوله إلى تمساح مفترس عظيم قضى

(١) أنطون ذكرى ، الأدب والدين عند قدماء المصريين ، المرجع السابق.

(٢) جورج بوزنر وآخرون ، معجم الحضارة المصرية القديمة ، المرجع السابق.

(٣) أنطون ذكرى ، الأدب والدين عند قدماء المصريين ، المرجع السابق.

على الفتى حين نزل إليه ثم دعى مليكه ليشهد ذلك. فلما رأى الملك التمساح ارتاع وفتح لمرآه، ولكن الكاهن ما كاد ينحني ليلتقطه حتى عاد سيرته الأولى دمية من الشمع<sup>(١)</sup>.

وهكذا ظن فرعون موسى أن هذا الذى رآه من تحول عصا موسى إلى ثعبان هائل شبيه بما كان يعرف أو بما كان شائعاً من السحر. ووافقه ملؤه فى ذلك مشيرين عليه: أن يؤخر منازلة موسى وأخيه ومحاجاته ويبيعت فى أقاليم ومدائن ملكه من يحشر له السحرة، وكل ماهر فى معرفة السحر وكثير العلم بصناعته من سائر البلاد ويجمعهم ليعارضوا موسى بنظير ما جاء به.

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا أَيُّكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

وهنا يستأنف فرعون حديثه إلى موسى وقد مال إلى ما أشار به ملؤه وحاشيته، قائلاً له ليكن بيننا وبينك موعداً وليكن يوم الزينة.

﴿ فَلَمَّا بَيْنَاكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسُ ضَحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة طه].

وكان للمصريين القدماء أعياد كثيرة منها عيدان مهمان هما: عيد الربيع الذى تطلق عليه (شم النسيم) وكان بين ٢٢ مارس (برمهات) و٣ ابريل (برمودة). وعيد وفاء النيل عندما يكتمل فيضان النيل فى منتصف الصيف تقريباً، فى أحد أيام شهرى يوليو (أبيب) وأغسطس (مسرى).

واختلف البعض فى يوم الزينة فالبعض يرى أنه يوم وفاء النيل والبعض الآخر يرى أنه يوم شم النسيم. وقيل هو يوم عاشوراء وفى مثله أهلك الله فرعون وجنوده<sup>(٢)</sup>. وعاشوراء هو اليوم العاشر من شهر محرم فى التقويم الهجرى عند المسلمين وهو يماثل يوم الغفران أو التكفير أو يوم كيפור عند اليهود حيث يعتقد إنه اليوم الذى نجى الله فيه موسى وقومه من آل فرعون. والمهم فى الأمر أن اليوم كان يوم عيد للقوم يتزينون فيه وأن التجمع كان «ضحى» لتكون المنازلة أكثر جلاءً ووضوحاً ويكون الجو محتملاً للاجتماع قبيل الظهر.

وصدرت الأوامر لكبار السحرة بالتجمع يوم الزينة، حيث يتزين الناس ويخرجون إلى المتنزهات والأسواق، لمواجهة موسى وعصاه الثعبانية.

(١) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، مصر فى القرآن والسنة، المرجع السابق.

(٢) تفسير ابن كثير.

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [سورة الشعراء].

وكانوا جمعاً غفيراً واختلفت الآراء في عدد هؤلاء السحرة فقبل اثنا عشر ألفاً، وخمسة عشر ألفاً، وتسعة عشر ألفاً، واثنان وثلاثون ألفاً، وسبعين ألفاً وثمانون ألفاً<sup>(١)</sup>. والله وحده أعلم بعدتهم، فلم يرد ذكر لعدددهم في القرآن الكريم كما لم تورد التوراة عدداً لهم. وكان هناك اجتماع لا شك بين فرعون وكبار السحرة قبل المنازلة الشهيرة حيث اشترط السحرة لأنفسهم الأجر الكبير إذا انتصروا على موسى وكانت لهم الغلبة، فوافق فرعون على جزل العطاء لهم بل ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده.

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ [سورة الأعراف].

وجاء اليوم الموعد ووجهت دعوة مفتوحة إلى جميع الناس، فاجتمعت حشود كبيرة لمشاهدة هذا الموقف المهيّب، وجلس فرعون وسط حاشيته وملئه في أبهته المعهودة وهو معهم يمنون بأنفسهم بانتصار السحرة.

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴾ [سورة الشعراء] ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴾ [سورة الشعراء].

ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أم من موسى، إنها الثقة بلا حدود في نجاح السحرة، واليقين بالنصر على موسى وأخيه هارون. واصطف السحرة تجاه موسى وأخيه هارون، ومع كل ساحر منهم حبل وعصا.

بل إن السحرة أنفسهم - ولم يعاينوا حتى الآن برهان رب العالمين - كانوا يظنون بأن موسى ما هو إلا ساحر جاء لكي يفسد عليهم ما هم فيه من مكانة، وتصبح له المكانة العالية في هذا الفن الذي يبرعون فيه ويحيون عليه. حتى إنهم لم يسمعوا لموسى عندما قال لهم لا تفترؤا على الله كذباً ولا تتقولوه فيستأصلكم بهلاك ويبيدكم ﴿ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [سورة طه].

والإسحات هو الاستئصال وإذهاب الأثر وسحّت الشيء سحّاً أى استأصله<sup>(٢)</sup>. ومع ما لفتهم إليهم موسى عليه السلام إلا إنهم تجاهلوا هذا النداء ودعوا إلى الاستعداد للمواجهة

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ١.

(٢) المعجم الوجيز.

وقالوا بعد أن تنازعوا أمرهم بينهم وأسرروا النجوى.

﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ لَسِحْرَيْنِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿١١٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعَلَى ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه].

واستعد الفريقان للمباراة وقطع السحرة الصمت متوجهين إلى موسى: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة الأعراف].

﴿... إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى ﴿١١٥﴾﴾ [سورة طه].

قال موسى عليه السلام ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى ﴿١١٦﴾﴾ [سورة طه].

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة الشعراء].

قيل: الحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه فإذا فرغوا من بهرجتهم جاءهم الحق الواضح الجلى بعد الانتظار لمجيئه فيكون أوقع في النفوس<sup>(١)</sup>. وأسرع السحرة بإلقاء ما جهزوا من عصى وحبال، باسم إلههم فرعون.

﴿فَأَلْقُوا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة الشعراء]. قيل سبعون ألف حبل وعصيتهم سبعون ألف عصا وقيل كانت الحبال اثنين وسبعين ألفا وكذا العصى<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة الأعراف].

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى ﴿١١٦﴾﴾ [سورة طه - الآية ٦٦].

ذلك أنهم لطحوا العصى بالزئبق فلما أصابها حر الشمس ارتعشت واهتزت فخيّل إلى الناس أن الأرض امتلأت حيات وأنها تسعى على بطنها<sup>(٣)</sup>. ويذكر العهد القديم: «فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك، طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين» (الخروج ٧: ١١ - ١٢).

وبهت كل من بالساحة، حتى موسى نفسه، في لحظة ما، خاف على الناس أن يفتنوا

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير النسفي.

(٣) تفسير القرطبي، وتفسير فتح القدير.

بسحرهم ويغترون بهم قبل أن يلقي ما فى يمينه وأخفى فى نفسه ذلك فالإيجاس الإخفاء والخفية.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [سورة طه].

وقيل إن سبب خوفه هو أن سحرهم كان من جنس ما أراهم فى العصا فخاف أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا<sup>(١)</sup>.

فطمأنه الله تعالى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ [سورة طه]. إنك أنت الغالب على هؤلاء السحرة وعلى فرعون وجنده، واطمأن موسى وذهب عنه الروع. وفى الساعة الراهنة أوحى الله تعالى إليه أن ألق ما فى يمينك، يعنى عصاك، فكانت المعجزة الكبرى. وتحولت العصا إلى حية هائلة تبتلع كل ما ألقى السحرة من حبال وعصى حتى لم تبق منها شيئاً، وأصل اللقف الأخذ بسرعة.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [سورة الأعراف]، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك جهاراً نهاراً فى ذلك الضحى، ووقع الحق وبطل السحر.

﴿ وَالَّذِي مَاتَ بِمَيْمِنِكَ نَلَقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [سورة طه].

وفوجيء المحتشدون من المصريين والحاضرون من بنى إسرائيل، حتى السحرة بهتوا. فلما عاينوا ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وصنعتة، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حق لا مرأى فيه. وأيقنوا أنهم أمام معجزة إلهية فلا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشئ، كن فيكون. فعند ذلك شهدوا بصدق موسى وهارون فيما بلغا عن رب العالمين. ووقعوا ساجدين لله، وقالوا: «آمنا برب العالمين رب موسى وهارون».

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف] ﴿ فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴾ [سورة الأعراف] ﴿ وَالَّذِي السَّحَرَةُ سَحَرْتَهُنَّ ﴾ [سورة الأعراف] ﴿ قَالُوا أَمْ نَارِيبُ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأعراف] ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [سورة الأعراف]. وهكذا وقع الحق وانقلب فرعون وقومه مغلوبين وأما السحرة الذين آمنوا فقد ثبتوا على إيمانهم. إن فرعون أمام هذه الآية البينة الواضحة وقد استبد به الغضب من موقف السحرة، الذى

(١) تفسير فتح البارى، وتفسير الجلالين.

ترتب عليه خذلانه أمام عدوه موسى وسقوط ألوهيته المزعومة أمام الناس جميعاً، لم يراجع نفسه ولم يسكت على هزيمته الفاضحة.

وكانت صدمة - لا شك - قوية لم يتحملها فرعون ولم يسكت عنها وهي خذلانه وهزيمته وإيمان سحرته برب العالمين. إذ كيف يؤمنون قبل أن يستأذنوه في ذلك؟!،

فهؤلاء الذين ألقوا حبالهم وعصيهم وأقسموا بعزته إنهم لغالبون نجدهم أنفسهم بعد لحظات يقسمون برب موسى وهارون (والذى فطرنا)، إنه قسم بالذى خلقهم وهدهم وهو الله تبارك وتعالى، ناكرين ألوهيته الواهية التى يجدون فيها الإله يلجأ إلى العباد.

وأمام ذلك نجده يتهمهم بالتواطؤ مع موسى مدعياً أنه معلمهم، ﴿قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ إِنَّهُ، لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبَيْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (سورة طه).

وأنهم قاموا بخدعة كبيرة ليستولوا على مصر فيخرجوا منها أهلها ويتغلبوا عليها بسحرهم، ويذكر ابن كثير<sup>(١)</sup> فى رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما أن موسى عليه السلام تحاور وأمير السحرة، فقال له موسى رأيتك إن غلبتك تؤمن بى وتشهد أن ما جنئت به حق، قال الساحر لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر فوالله لئن غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنك حق وفرعون ينظر إليهما. فلهذا قال فرعون أن ما حدث ما هو إلا مكر تم بين موسى والسحرة وقوله «لتخرجوا منها أهلها» أى تجتمعون أنتم وهو وتكون لكم دولة وصوله وتخرجون منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم وذلك فى محاولة منه التلبيس على شعبه وعلى جمهور الحاضرين والمشاهدين لهذه المناظرة، مشيراً إلى أنهم مازالوا تحت رحمته فكيف آمنوا بموسى قبل الإستئذان منه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف).

وكان طبيعياً أن يغلى دمه وتتملكه الثورة ويتوعد السحرة بأشد العذاب. واعتبرهم خارجيين على النظام وأقسم على تعذيبهم حتى الموت بلون جديد من التعذيب لم يكن مألوفاً ومعتاداً عليه فى مصر قديماً، قائلاً: ولتعلمن أيها السحرة أينا أشد عذاباً لكم وأدوم، أنا أو موسى.

(١) تفسير ابن كثير.

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ، لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (٧١) [سورة طه].

وعلى الرغم من هذا التهديد شديد اللهجة من شخصية عاتية متجبرة فإن السحرة لم يتراجعوا، بل ثبتوا على موقفهم، وقالوا ما نعمتكم علينا إلا لأننا رأينا الحق وأن ما جاء به موسى خارج عن طاقة البشر ولا علم لنا به، ولن نفضلك على ما رأينا من الحق. وقيل: إنهم لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة<sup>(١)</sup>، فلهذا قالوا اصنع ما أنت صانع واعمل بنا ما بدا لك إنما تقدر أن تعذبنا في هذه الحياة الدنيا التي تفتني، قائلين:

﴿ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِكَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (١٢١) [سورة الأعراف].

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَنَّكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (٧٢) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٧٣) [سورة طه].

ولم يشير القرآن الكريم إلى ما آل إليه مصير السحرة من التصليب والموت مكتفياً بصدور هذه العزيمة من فرعون. وعلى الأرجح فإنه وقد انتهى النهار صلب السحرة في جذوع النخل في الميادين العامة وفي الأسواق ليأرمهم الناس، وقيل قطع فرعون أيديهم وأرجلهم وصلبهم على شاطئ النهر، وإنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف<sup>(٢)</sup>. وهم في ذلك الموقف الرهيب، وهم يساقون إلى حيث تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبون فتأكل الطيور من رؤوسهم، يتجهون إلى الله بقلوب خاشعة مؤمنة بالدعاء أن يصب الله عليهم صبراً من عنده فيثبتوا على إيمانهم ولا يُفْتَنُوا ويعودوا إلى الكفر:

﴿ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِكَ رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (١٢١) [سورة الأعراف].

ولهذا قال ابن عباس وآخرون: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء ببرة<sup>(٣)</sup>.

(١) تفسير القرطبي، وتفسير فتح القدير.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي.

فقد كانوا أهل شر في الصباح وصاروا قادة إيمان وقدوة في الصبر والثبات ومثالاً لمن يرى الحق فيتبعه ولا يخاف فيه لومة لائم وذلك إلى يوم الدين. وقيل إنه فعل بهم ما أوعدهم من تقطيع وصلب وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: «أنتما ومن اتبعكما الغالبون»<sup>(١)</sup>. وبحدث إيمان السحرة وصلبهم (أو عدمه) يسدل الستار على معجزة العصا يوم الزينة. ولم يؤمن فرعون وملؤه على الرغم من هذه المعجزة الباهرة والآية العظيمة، واستمروا في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم.

وتوالى بعد ذلك الآيات فى وقت طويل استغرق سنين عديدة لتكتمل الآيات أو الحجج التسع التى ساقها الله على يد موسى. ولحقت الكوارث بمصر سنين عديدة فيما ذكر القرآن وروى العهد القديم (سفر الخروج الإصحاح ٨، ١٠، ٩) فأصيبت بالقحط والعلل والآفات. فكانت الآية التالية، بعد يده التى خرجت بيضاء ناصعة وهو رجل شديد السمرة، والعصا التى تحولت إلى ثعبان هائل التفتت عصى السحرة وحياتهم التى سحروا أعين الناس بها، هى سنو الجوع بسبب الجذب والقحط، وانخفاض ماء النيل، وجفاف الأرض وموت الضرع وقلّة الزرع. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف].

والسنة أى: الجذب وقيل أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة «ونقص من الثمرات» أى نقص فى الزرع والثمار والغلات والآفات والعاهات، فأما السنين فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار والقرى<sup>(٢)</sup>.

ولقد كان النيل وما زال شريان الحياة لمصر فإذا ما انحبس النيل تجذب الأرض ويموت الزرع والضرع، وإذا زاد تغرق البلاد بطوفان عظيم. وهو فى الحالين نذير الكوارث ونقص من الثمرات. فإذا وقعت الواقعة انتشرت بها الأدوية والأوبئة والأمراض فحصدت الناس حصداً قد يعجزهم عن تشييع موتاهم إلى القبور.

وإزاء هذا البلاء النازل، والذى يئس فرعون من كشفه، واستشعاراً منه وقومه أن سببه عدم الإيمان بما جاء به موسى، نجدهم يستغيثون بموسى أن يرفع عنهم ما هم فيه من بلاء ولسوف يؤمنون به فيغيثهم الله. ويفيض ماء النيل ويعود الخير كما كان. ومع ذلك لم يرتدع فرعون بل يعود إلى سابق عهده من العناد والكفر أشد ضراوة وحقداً. فكانت الآية التالية:

(١) تفسير البيضاوى.

(٢) تفسير الطبرى.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (سورة الأعراف).

حيث كثرت الأمطار المغرقة التي كونت السيول العظيمة فأغرقت المزروعات وجرفت التربة. وقيل: إنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى أعناقهم. وركد الماء فى أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها ودام ذلك عليهم أسبوعا وقيل: أربعين يوما<sup>(١)</sup>.

وقيل عن الطوفان أيضا: إنه الطاعون أو إنه كثرة الموت<sup>(٢)</sup>، وقيل الطوفان فى اللغة ما كان مهلكا من موت أو سيل: أى ما يطيف بهم فيهلكهم<sup>(٣)</sup>. وأى من هذه الأشياء لم يطقه فرعون وقومه وأسرعوا يلوذون بموسى ليكشف عنهم هذا البلاء على وعد بأن يهتدوا. وحتى فى طلبهم يتعالون عليه ويصرون على أنه ساحر.

﴿ وَقَالُوا بِنَاءِ السَّاحِرِ أَدْعُ لِنَارِكَ يَمَا عَهْدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ (٤٩) ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ (٥٠) [سورة الزخرف].

فما أن غاض الماء وانكسرت حدة الطاعون أو الموت، وأنبت الله لهم ما لم يعهدوا من الكلاً والزرع والثمر، قالوا: ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصبا، فلم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية<sup>(٤)</sup>.

وعاد فرعون وملؤه أكثر جبروتاً وعتواً. وعادوا إلى سابق عنادهم وكفرهم، بل وأصروا على ذلك:

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٢) [سورة الأعراف]، إنها الجبلة الفرعونية الملعونة.

فتوالت الآيات كل منها أكبر من سابقتها، كل ذلك لعلهم يرجعون عن ذلك الغى والعناد.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (سورة الأعراف).

(١) تفسير القرطبي، وتفسير فتح القدير وتفسير البيضاوى.

(٢) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي.

(٣) تفسير فتح القدير، وتفسير القرطبي.

(٤) تفسير القرطبي وتفسير فتح القدير.

فكانت آية الجراد. والجراد بفتح الجيم وتخفيف الراء معروف، والواحدة جرادة والذكر والأنثى سواء. ويقال أنه مشتق من جرد لأنه لا ينزل على شيء إلا جرده. ولقد كانت مصر عرضة لكوارث الجراد الذي يأتي على كل شيء فلا يبقى ولا يذر، وكفى بالمصريين نقصاً في الثمرات أن يرسل عليهم الجراد ذلك الذي يقضى على الأخضر واليابس من أرضهم. وكان لكثرة الهائلة إذا أقبل مضرب المثل في الجيوش الكثيرة الساحقة، إذ كان ينزل بمصر منذ أقدم العصور سحبا تكاد تحجب الشمس عن العيون كما وصفتها متون الأهرام<sup>(١)</sup>.

وأرسل الله على فرعون وقومه أسراباً من الجراد حطت على الزروع والثمار فأنت عليها. فأكلت عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر، ولم يكن يشبعه شيء حتى جار على الأبواب والخشب والثياب والأمتعة فعجوا وضجوا.

وكما يصفها العهد القديم (الخروج ١٠ : ١٢ - ١٥):

«فمد موسى عصاه على أرض مصر، فجلب الرب ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل. ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد. فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل في جميع تخوم مصر. شيءٌ ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك. وغطى وجه الأرض حتى أظلمت. وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر.. حتى لم يبق شيءٌ أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر».

وهرع المزارعون إلى موسى، وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك لأنك كشفت عنا هذا العذاب لنؤمنن لك. وأعطوه عهد الله وميثاقه واستعطفه فرعون أن يطلب من الله رد هذا الجراد، فدعا موسى ربه ورحلت أسراب الجراد بعدما قضت على ما على الأرض من خضرة.

وبدأ الناس في الزراعة من جديد، وما أن اخضر الوادي وحملت الأشجار ثمارها حتى عاد فرعون إلى عناده وجبروته وعصيانه فبعث الله عليهم القمل - والقمل «مفردها قُمَّلة» كلمة عبرية أو سيريانية<sup>(٢)</sup> - وهناك اختلاف في تفسيرها فبعضهم يرى أنها صغار الدَّبِّي «جمع دبابة» وهو الجراد قبل أن يطير، أو هي سوس القمح أو الحنطة أو أنها البراغيث أو القمل تلك الحشرة التي تحمل الأمراض وتقرص الناس في أجسامهم ورؤوسهم فتقض مضجعهم وتمنعهم من النوم<sup>(٣)</sup>. وعلى كل حال هي حشرات صغيرة قد تنتشر وتكثر في

(١) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، مصر في القرآن والسنة، المرجع السابق.

(٢) محمد السيد الداودي، من كنوز القرآن بحوث لغوية متنوعة، دار المعارف، ١٩٧٣.

(٣) تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، تفسير القرطبي.

وقت واحد، غطت حياة المصريين ونغصتهم.

وفى العهد القديم (الخروج ٨ : ٢٤):

«فعل الرب هكذا. فدخلت دُبان كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده، وفى كل أرض مصر خربت الأرض من الدُبان».

وأرجعوا ما أصابهم إلى وجود بنى إسرائيل بينهم، وتطيروا أو تشاءموا بموسى ومن آمن معه. فإذا جاءهم الخير نسبوه إلى أنفسهم وقالوا هذا الذى نستحقه وهذا الذى يليق بنا، وإن تصبهم سيئة وشر يقولون بشؤمهم أصابنا هذا.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ أَحْسَنُهُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف]. ورغم ذلك تتكرر الشفاعة ويتكرر الدعاء، ويستجيب الله ويرفع عنهم ما هم فيه من البلاء، ثم يعودوا إلى جبلتهم المعهودة، فتكون الآية الأشد منها.

الضفادع تلك الحيوانات الصغيرة ذات النقيق المزجج والتي كانت معروفة لدى المصريين القدماء باسم «حككت» أو «حككات». وكان المصريون يعتقدون أنها تخلق من طين النيل الذى تركه الفيضان ولذلك كانت رمزاً للبعث، وكانت لها قدسية فى بعض المقاطعات مثل مقاطعة ألفتين (أسوان)<sup>(١)</sup>.

وكانت تلك الضفادع آية جديدة من آيات الله التى ساقها إلى فرعون وقومه والتى كثرت عندهم، وغطت اليابس والماء، وعاثت فى بيوتهم حتى كانت تسقط فى آنية طعامهم وتدخل فى ملابسهم وفرشهم، وتثب إلى قدورهم وهى تغلى وأفواههم عند التكلم، حتى قيل: إن الرجل كان يجلس إلى ذقنه فى الضفادع، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع فى فيه حتى ضاق الناس وضجوا<sup>(٢)</sup>.

وفى العهد القديم (الخروج ٨ : ١ - ٤).

«قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبي ليعبدونى. وإن كنت تأبى أن تطلقهم فما أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع. فيفيض النهر ضفادع، فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك. عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع».

(١) أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)، مصر فى القرآن والسنة.

(٢) تفسير ابن كثير، وتفسير البيضاوى.

وفزعوا إلى موسى وتضرعوا، ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ  
عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [سورة  
الأعراف].

وقالوا: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع، فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل،  
ودعا ربه فكشف عنهم ما هم فيه. فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول وجمعوها  
أكواماً كثيرة حتى أنتنت الأرض. حتى إذا رأى فرعون وحاشيته أن الفرج قد تم، عادوا  
إلى سابق كفرهم وعنادهم وخداعهم وعدم الوفاء بعهودهم. فقالوا: ما نحن لك بمؤمنين  
ولا مرسلين معك بنى إسرائيل ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ  
يَنْكُثُونَ ﴾ [سورة الأعراف].

فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دما. فكانوا لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون  
من إناء إلا عاد دما. وكان فرعون يجمع بين القبطى والإسرائيلى على الإناء الواحد فيكون  
ما يلى الإسرائيلى ماء والقبطى دما ( ويقومان إلى الجرة فيها الماء فيخرج للإسرائيلى ماء  
وللقبطى دم ) حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتى المرأة من بنى إسرائيل حين جهدهم  
العطش فتقول اسقنى من مائك فتصب لها من قربتها فيعود فى الإناء دما، حتى كانت  
تقول اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فى فتأخذ فى فيها ماء فإذا مجته فى فيها صار دما  
وقد يكون فى هذا شىء من المبالغة. وإن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ  
الأشجار الرطبة فإذا مضغها يصير ماؤها فى فيه ملحا أجاجا فمكثوا فى ذلك سبعة أيام  
لا يشربون إلا الدم<sup>(١)</sup>. وقيل عن الدم أنه الرُعاف<sup>(٢)</sup> وهو خروج الدم من الأنف.

ويصف العهد القديم هذه الآيية فى سفر الخروج (٧ : ١٩).

«ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على أنهارهم  
وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دما. فيكون دم فى كل  
أرض مصر فى الأخشاب وفى الأحجار».

وضاق المصريون بهذا البلاء المبين فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم وليس  
لنا شراب فقال: إنه قد سحركم. فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئا  
من الماء إلا وجدناه دما؟ فأتوه وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير فتح القدير.

لك ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل<sup>(١)</sup>، وأصر فرعون وملؤه على الكفر والتمادى فى الشر.

وإن الإنسان ليعجب لتمسك فرعون بعدم خروج بنى إسرائيل من مصر، وليس الأمر رغبة فى تسخيرهم فى المبانى والإنشاءات، فالمصريون بسواعدهم بنوا الأهرامات العديدة وبنوا المعابد الضخمة ونحتوا مقابرهم فى الجبال حيث الصخور الصلبة وملأوا البادية والحضر بمبانيهم الدنيوية والدينية. وأغلب الظن أن إصرار فرعون على عدم خروج بنى إسرائيل من مصر بالرغم مما نزل به من ضربات لم يكن إلا عنادا غالباً.

ويستمر هذا العناد والكفر من فرعون وقومه حتى مع دعوة ذلك المؤمن من آل فرعون لهم، وخوفه عليهم وإخلاصه لهم، ولما يئس منهم فوَّض أمره إلى الله. ومع ذلك لم يتركوه وشأنه فنجدهم يمحرون به وينجيه الله من مكرهم.

﴿ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِكَالٍ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة غافر].

ويسهب العهد القديم فى سرد هذه الآيات ويضيف عليها آيات أخرى مثل البعوض الذى انتشر فى جميع أرض مصر» فصار على الناس وعلى البهائم حتى تراب جميع أرض مصر صار بعوضاً. (الخروج ٨ : ١٦ - ١٧).

والدمامل حيث أخذ هارون وموسى رماد الأتون «ووقفاً أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء فصار دمامل بثور طالعة فى الناس وفى البهائم». (الخروج ٩ : ١٠).

والبرد والرعود فيذكر العهد القديم: «فأعطى الرب رعوداً وبردًا وجرت نار على الأرض وأمطر الرب بردًا على أرض مصر. فكان برد و نار متواصلة فى وسط البرد. شىء عظيم جداً لم يكن مثله فى كل أرض مصر منذ صارت أمة. فضرب البرد فى كل أرض مصر جميع ما فى الحقل من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد» (الخروج ٩ : ٢٣ - ٢٦). وربما يقصد بهذا البرد الطوفان الذى أشار إليه القرآن.

(١) تفسير ابن كثير.

## والظلام الدامس فكما يذكر العهد القديم:

«فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام. لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام. ولكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم». (الخروج ١٠: ٢٢ - ٢٣).

ولا ندري مدى صحة حدوث مثل هذه الآيات الأخيرة وصحة وقائعها فلم يرد ذكرها إلا في العهد القديم ولعل إشارتها إلى تمييز بنى إسرائيل والتأكيد عليه في نهايتها يلقى مزيداً من الرتبة فيها.

وبغض النظر عن هذه الآيات الأخيرة، فإنه بعد هذه المرحلة الطويلة من العناد والكفر بالآيات الواضحة، يتسرب اليأس إلى موسى ويشعر أنه لا رجاء في إيمان هذا الطاغية العنيد، ولا أمل في ملئه وحاشيته، ويرى اغترارهم بما وهبهم الله من نعم وثروات وأموال وزينة وحلى، وتماديهم في الضلال وعدم الإيمان على الرغم مما عاينوه من أمر قارون. فدعا موسى ربه أن يطمس على أموالهم. فكانت الآية الأخيرة أن طمس الله على أموالهم فصارت حجارة، وشدّد على قلوبهم فلم يؤمنوا حتى أتاهم الغرق، وذلك استجابة لدعوة موسى عليه السلام.

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة يونس].

أى أعطيتهم أموالاً من الذهب والفضة وكريم الأحجار وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به استدراجاً وفتنة لهم فيتبطروا ويتكبروا ويضلوا عن سبيلك ويضلوا غيرهم<sup>(١)</sup>. وقيل أعطيتهم ذلك لئلا يضلوا فحذفت لا كما قال عز وجل: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلِمَةِ إِنِ امْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ بِرِثَتِهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا النِّسْآنِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [سورة النساء] والمعنى: لأن لا تضلوا، وقيل: اللام للدعاء أى أبتلهم بالضلال عن سبيلك لأن بعده: «اطمس

(١) تفسير ابن كثير.

على أموالهم واشدد على قلوبهم»<sup>(١)</sup>، أى امسح على أموالهم واشدد على قلوبهم بالضلالة فلا يصدقون بتوحيد الله ويقرون بوحدايته حتى يروا العذاب الموعود.

ولقد آمن أخوه هارون على دعائه عليه السلام واستجاب الله لهما فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس].

فمسخت أموالهم حجارة ولم يؤمن فرعون حتى أدركه الغرق، وقيل مكث فرعون وقومه بعد هذه الإجابة أربعين سنة ثم هلكوا<sup>(٢)</sup>. وكان أمر الله لموسى وأخيه أن يستقيما ويمضيا فى الرسالة والدعوة حتى ينفذ وعد الله وألا يسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعده سبحانه فيستعجلا قضاءه فإن وعده لا يخلف وإن وعيده نازل بفرعون وعذابه واقع به وبقومه.

إذاً هو العناد الفرعونى والتكذيب المستمر بالآيات المفصلات والذى يورث الكفر والهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة آل عمران].

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ [١١] ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [١٢] [سورة القمر].

### محاولة النكوص والتوبة بعد فوات الأوان

إن الله بعدما ساق له ولقومه من الآيات ما لا يكذب ولا ينكر، قد أمهله ومد له مدا. ولقد كانت أبواب التوبة أمامه مفتوحة على مصراعيها تناديه صباحاً ومساءً إلا إنه أسرف فى الضلالة كما أسرف فى الطغيان والتكبر والعناد وفى كل شىء. ووصل إلى مرحلة اللاعودة، مرحلة ما لا يمكن أن يغفر. وزين له سوء عمله واتبع هواه الذى أوصله إلى الهاوية الكبرى عندما نسب الألوهية والربوبية إليه فقال:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَمُنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلَّكُمْ تَطَّلِعُونَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة القصص].

(١) تفسير القرطبي وفتح القدير.

(٢) تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير فتح القدير، وتفسير البيضاوى.

وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [سورة النازعات].

فكان جزاؤه أن أخذته الله الأخذة الكبرى أخذة العزيز المقتدر القوى الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [سورة النازعات].

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَتُ بِالْحَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحاقة].

﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ [سورة الزمّل].

وأمام هذا العناد والكفر بالآيات، ومع العذاب والاضطهاد المستمر كان لابد لبنى إسرائيل من مخرج، فكان الخروج من مصر.

خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل أول الليل وكانوا أكثر من ستمائة ألف كما يذكر العهد القديم (الخروج ٢٧: ١٢)

«فارتحل بنو إسرائيل من رعسيس إلى سُكُوت نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد».

إذاً، فقد خرج بنو إسرائيل فارين من بطش الفرعون واضطهاده وحملوا معهم أشياءهم حتى عجبتهم قبل أن يختمر ومعاجنهم كانت مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم. وكانوا قد استعاروا من المصريين حلى فضة وذهباً وأمتعة وثياباً لعيد يخرجون إليه فأعارهم المصريون ما طلبوا. وساقوا معهم أغنامهم وأبقارهم ومواشيهم. وأخرجوا معهم جسد يوسف عليه السلام لأنه كان عهد إليهم ذلك، ودلتهم عجوز على موضعه فقال لها موسى عليه السلام: احتكمتى فقالت: أكون معك فى الجنة. فوصل الخبر فرعون فاستبد به الغضب وكان قد أمر بشاة فذبحت فأقسم ألا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إليه ستمائة ألف من القبط. فجمع جنوده وخرج بهم فى جيش كانت مقدمته فيما يُحكى سبعمائة ألف فارس وقيل: ألف ألف أو خمسمائة ألف وست مئة مركبة<sup>(١)</sup>.

ومع تسليمنا بما فى مثل هذه الأعداد سواء الخاصة ببني إسرائيل أم جنود فرعون من مبالغة، فإن فرعون قد أخذ جنوده ومركباته وتتبع بنى إسرائيل الفارين وقص أثرهم حتى تراءى الجمعان فعظم فزع بنى إسرائيل. ووصل بجنوده إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها

(١) تفسير ابن كثير.

﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَّبِعِينَ ﴾ [سورة الشعراء].

واقترب فرعون وتراءى الجمعان فشاهداهم فرعون من بُعد ورآه بنو إسرائيل ورأوا جنوده ومركباته ففزعوا فزعاً شديداً وقالوا لموسى إنا لمدركون، اليوم يدركننا فرعون فيقتلنا، فيها هو ذا البحر بين أيدينا وفرعون من خلفنا، وسوف يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا

﴿ فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ﴾ [سورة الشعراء]، لقد عادوا إلى طبيعتهم من عدم اليقين بالله والثبات على الإيمان فقد اتهموا موسى من قبل بأنه مصدر الشقاء لهم وأن مجيئه إليهم لم يكن إلا مزيداً من الشقاء والإيذاء.

﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف]. فيها هم أولاء يقولون في خوف، لا يردهم إيمانهم عنه، إنهم سوف يُدركون وإنهم مقضى عليهم لا محالة.

وفى العهد القديم:

«وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر» (خروج: ١٤ - ١١).

فقال لهم موسى بيقين المؤمن بربه الواثق من نصره: ليس الأمر كما ذكرتم، كلا لن تُدرکوا إن معى ربى سيهدينى إلى طريق أنجو فيه من فرعون وقومه ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [سورة الشعراء].

وطمأنهم موسى بأنه لن يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد. وكان هارون عليه السلام فى المقدمة ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام فى الساقة أو خلف الجموع. وقيل: إنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله ههنا أمرك ربك أن تسير؟ فيقول نعم<sup>(١)</sup>.

وفى سفر الخروج (١٣: ١٤ - ١٤):

«فقال موسى للشعب لا تخافوا، قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم.

(١) تفسير ابن كثير

فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضا إلى الأبد. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون».

وتذكر كتب التفسير عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجا، فأوحى الله إليه:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء].

أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع، فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدري من أى جانب يضربه موسى فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون: يا نبي الله أين أمرك ربك عز وجل؟ قال: أمرنى أن أضرب البحر قال: فأضربه<sup>(١)</sup>. فضربه موسى بعصاه وقال: انفلق بإذن الله

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الشعراء] أى كالجبل الكبير. وقال ابن عباس (تفسير ابن كثير) صار البحر اثني عشر طريقا لكل سبط من أسباط بنى إسرائيل طريق، وزاد البعض فقالوا صار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا. والفرق القطعة من البحر وقرئ فلق بلام بدل الراء<sup>(٢)</sup>، وقام الماء كالحيطان وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبسا كوجه الأرض واليابس هو ما كان رطباً وجافاً، فقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [سورة طه]. أى لا تخاف أن يدركك فرعون ولا تخشى أن يغرق قومك فى البحر.

وفى العهد القديم: "فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم" (الخروج ١٤ : ٢٢).

«وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم» (الخروج ١٤ : ٢٩).

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير فتح القدير.

حتى إذا أشرف فرعون على شاطئ البحر وجدهم يقودهم موسى في طريق يابس وسط الماء، وعلى جانبيه تقف الأمواج العاتية كالجبال الراسية. دنا فرعون وأصحابه بعد ما قطع موسى ببني إسرائيل البحر، فلما رأى فرعون وجنوده البحر منفلقا استعظموا الأمر، وفي سفر الخروج (١٤ : ٢٥):

«فقال المصريون نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصريين عنهم». وقال فرعون لهم: إنما انفلق من هيبتي وقد تفتح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم، وقال: أقدموا فليس القوم أحق بالبحر منكم ! فذلك قول الله ﴿وَأَزَلْنَا نَمَّ الْأَخْرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الشعراء] أى قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه، وقيل (أزلقنا) جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جمع، وقرأ أبو عبد الله بن الحارث وأبى كعب وابن عباس: وأزلقنا بالقاف على معنى أهلكناهم من قوله أزلقت الناقة وأزلقت الفرس فهى مزلق إذا أزلقت ولدها<sup>(١)</sup>. فلما قام فرعون على الطرق أبت خيله أن تقتحم، فكان أمر الله لها أن تنزل البحر خلف موسى وقومه.

«فدفع الرب المصريين فى وسط البحر، فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر لم يبق منهم ولا واحد» (الخروج ١٤ : ٢٧ - ٢٨).

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَعَشَّيْتُمْ مِمَّنْ لَبِثَ مَا عَشِيتُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة طه].  
وأتبع هنا مطاوع تبع، يقال أتبعتهم إذا تبعتهم وذلك إذا سبقوك فلحققتهم، فالمنى: تبعهم فرعون ومعه جنوده وقيل الباء زائدة والأصل أتبعهم جنوده: أى أمرهم أن يتبعوا موسى وقومه وقرئ ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾ بالتشديد: أى لحقهم بجنوده وهو معهم. كما يقال: ركب الأمير بسيفه أى معه سيفه<sup>(٢)</sup>.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَاقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة يونس] بغياً وعدوا أى فى حال ظلم واعتداء، والعدو بفتح العين وسكون الدال تتجاوز الحد، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ فى سورة الكهف أى لا تتجاوز إلى غيرهم. وقرأها البعض ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو مثل علا يعلوا علواً.

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير فتح القدير.

وقال المفسرون بغيا طلبا للاستعلاء بغير حق فى القول وعدوا فى الفعل فهما نصب على المفعول له .

«وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم. جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر» (الخروج ١٤ : ٢٣).

«فإن خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه إلى البحر، ورد الرب عليهم ماء البحر، وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر» (الخروج ١٥ : ١٩).

أقبل فرعون فلما أشرف على الماء دخل البحر خلف بنى إسرائيل وتبعه الجيش بجميع عرباته، قال أصحاب موسى: يا مكلم الله إن القوم يتبعوننا فى الطريق فاضرب بعصاك البحر فاخبطه، فأراد موسى أن يفعل فأوحى الله إليه: أن اترك البحر رهواً أى اتركه ساكناً على حاله التى كان عليها حين دخلته، أو اتركه طريقاً يبساً سهلاً أو منفرجاً فذلك معنى «رهوا»<sup>(١)</sup>.

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [سورة الدخان].

دخل فرعون وجنوده البحر خلف بنى إسرائيل وما كاد يلحق بهم ممتنياً نفسه بإعادتهم إلى مصر ثانية ليكونوا فى خدمته وتسخيره، وحتى إذا استكملوا دخولاً وخرج آخر أصحاب موسى أوحى الله إلى البحر: خذ عبدى الظالم وعبادى الظلمة، سلطانى فيك فأبى قد سلطتك عليهم، بدأت قوائم الخيل وعجلات المركبات تغوص فى الوحل وأقبلت الأمواج العاتية هادرة وانطبق البحر عليهم وغشيتهم المياه، وما هى إلا ثوان قليلة حتى ابتلعهم البحر فى جوفه.

﴿ فَأَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُودِهِ، فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [سورة طه]. أى علاهم وأصابهم والتكرار فى غشيتهم للتعظيم والتهويل، وقيل غشيتهم البعض الذى غشيتهم لأنه لم يغشهم كل ماء البحر بل الذى غشيتهم بعضه، فهذه العبارة للدلالة على أن الذى غرقهم بعض الماء والأول أولى لما يدل عليه من التهويل والتعظيم. وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم: أى غطاهم ما غطاهم<sup>(٢)</sup>.

﴿ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ، فَبَدَّدَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [سورة الذاريات]. والنبذ هو الطرح أو الإلقاء أما اليم فهو البحر. واليم كلمة أصلها قبطى أى مصرى وتعنى بالمصرية القديمة ym «يم»

(١) تفسير الطبرى، وتفسير القرطبي.

(٢) تفسير فتح النقد.

بمعنى البحر أو النهر، وظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشر. والمليم كما ترى معظم كتب التفاسير: هو الذى قد أتى ما يلام عليه من الفعل أو هو ملوم جاحد فاجر معاند. وان أرجع د. رمضان عبده<sup>(١)</sup> هذا اللفظ إلى أصله فى اللغة المصرية القديمة تحت معنى III مر أو مل أى يشكو أو يتألم وظهرت قبل الأسرة الثامنة عشرة فى البرديات الطبية، وأصبحت فى العربية ململ أى يتقلب من الألم.

﴿ وَجَوْرْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَاقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بُنَى إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس].

وهكذا انطبق البحر عليهم فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم وتراكمت المياه فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال، وقد أدركه الغرق وأيقن بالهلكة وأشرف على الموت، آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين فأمن حيث لا ينفعه الإيمان. هى إذا عادة كل مستقو بجبروته وملكه وسطوته يتذكر الله عندما تنسحب الدنيا من تحته وتتلاشى سلطته ويضيع ملكه.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مَشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة غافر].

وفرعون وهو يدركه الغرق وليس ثم من مفر له فتقل أنفاسه ويخاصره الموت ولا يملك للنجاة طريق وتبلغ الروح الحلقوم، عندها وعندها فقط، يدرك أنه كان على ضلالة وأن الذى جاء به موسى هو الحق، وأنه لم يكن إلها كما يدعى أو كما روج له المروجون من السدنة والمتلقين المنتفعين، بل الإله الحق هو إله موسى وبنى إسرائيل وهو رب العالمين فيجهر بذلك:

﴿ وَجَوْرْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَاقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بُنَى إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس].

ترى هل تنفع تلك التوبة، وهذا الجهر بالتسليم والإذعان بعد هذا التاريخ الطويل والممتد من الإسراف والظلم والطغيان والتكبر والاستعلاء والفساد والإفساد والضلال والتضليل

(١) رمضان السيد عبده (دكتور)، دراسة حول تطور علاقة موسى بالمنسول فى مصر، فى الفترة التى عاش فيها، مجلة التاريخ والمستقبل، العدد الثانى، يوليو ٢٠٠٠.

والعناد والكفر وادعاء الألوهية والربوبية.

إن الوقت قد فات ولا يجدى الآن ما يظهر من تسليم وإيمان ولهذا قال الله له :

﴿أَلَمْ تَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١١) [سورة يونس] أى من المفسدين فى الأرض. إن هذا الاعتراف والإذعان بالإيمان بما آمن به موسى لم يكن سوى وليد القهر والغلبة واليأس من النجاة والإشراف على الهلاك.

وهكذا ألم الغرق بفرعون وجنوده فى لحظة فارقة فى التاريخ، ونجى الله موسى ومن معه أجمعين، وكانت آية عظيمة أبصرها بنو إسرائيل جميعاً بأم أعينهم. ﴿وَأَزَلَفْنَا نَمَ الْآخِرِينَ﴾ (١٦) وَأَمَّيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (١٥) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ (١٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) [سورة الشعراء].

غير أن البعض من بنى إسرائيل وهم أمام هذه الآية الكبرى جحدوا غرقه، وقالوا: ما غرق فرعون، هو أعظم شأننا من أن يغرق. وسألوا الله تعالى أن يريهم إياه غريقاً، فأخرجه الله سبحانه من الماء ونبذه على ساحل البحر حتى نظروا إليه ورأوا جثته طافية ميتة، فذلك قوله :

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا كَتُكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ (١٢) [سورة يونس].

وننجيك أى نلقيك على نجوة من الأرض أى مرتفع. والمقصود نخرج جثتك ونبقيها عبرة ولتكون آية وعلامة لمن خلفك ولمن وراءك من المصريين والفرعنة، ومن لم يدركه الغرق ولم ينته إليه هذا الخبر، من بنى إسرائيل إذ كان فى نفوسهم من عظمتهم ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطروحا على ممرهم من الساحل<sup>(١)</sup>

أو تكون آية لمن يأتى بعدك من الأمم إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان وإن بلغ الغاية القصوى من عظم الشأن وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية. وهكذا كانت نهاية الفرعونية الملعونة فى الدنيا والآخرة، وهى النهاية المنطقية والمحتومة لكل هذه البشاعة

(١) انظر تفسير الطبرى والقرطبى وابن كثير والجلالين.

والقبح من خليط الصفات الذمومة.

﴿ فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (٣٣) [سورة الأعراف].

﴿ فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ، فَسَمِدْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٠) [سورة القصص]. وهكذا أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها ييم شديد، وما كان ربك بظلام للعبيد.

فهل على أمثال هؤلاء من الظالمين المكذبين بالآيات الغافلين عنها يمكن أن تبكى السماء لعظم مصيبتهم كما كانت العرب تقول مبالغة في وجوب الجزع والبكاء<sup>(١)</sup>، لا يمكن.

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (٣٦) [سورة الدخان].  
إن قوم فرعون لم يكن يصعد إلى السماء منهم خير ولم يكن لهم في الأرض آثار صالحة ولم يعملوا عليه عملاً صالحاً بل كانوا من المفسدين الفاسقين ولهذا لم تبك عليهم السماء والأرض، وما كان الله ليؤخرهم إلى وقت آخر فیتوبوا.

وهكذا كان عقابهم، ولحقته وقومه اللعنة في الدنيا فهم ملعونون على ألسنة الأنبياء والخلق، ويوم القيامة هم من (المقبوحين) أى من القوم الذين قبحهم الله وشوه خلقتهم أو المهلكين المقوتين<sup>(٢)</sup>.

﴿ وَأَنْبَعَثْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (٤٤) [سورة القصص].

فترادفت عليهم اللعنتان من الله، لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة.

﴿ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَّبِعُوا لَعْنَةَ الرَّفْدِ الْمَرْفُودِ ﴾ (٩١) [سورة هود].

وتقول كتب التفسير: إنهم لما هلكوا وأغرقهم الله جعلت أرواحهم في أجواف طير سود فهي تعرض على النار كل يوم مرتين (غدوا وعشيا) إلى أن تقوم الساعة.

وجميع المفسرين يرون أن هذا العرض يكون في البرزخ بالإضافة إلى أشد العذاب الذى سيدخله آل فرعون يوم القيامة فيكون العرض على النار غدواً وعشيا نوعاً من عذاب القبر. وفى حديث صخرة بن جويرة عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير فتح القدير.

الكافر إذا مات عرضت روحه على النار بالغداة والعشى وإن المؤمن إذا مات عرض روحه على الجنة بالغداة والعشى<sup>(١)</sup>، ثم تلا: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [سورة غافر].

وماذا يمكن أن يتوقع من جزاء مع هذا السجل الحافل بالاستكبار والتكبر والإجرام والتعالى وعدم الإيمان بالآيات الواضحة، وهذا الإجرام السافر، والظلم البين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نُفِّحُ لَهُمْ أَسْمَاءَ وَلَا يُدْخِلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَمِّ اللَّيْطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٧﴾ هَلْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤٨﴾ [سورة الأعراف].

إن هذا الظلم وهذا الإجرام لا بد أن ينتهى إلى الهلاك:

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ [سورة يونس].

سعد جعلهم الله سلفاً نثلاً من عمل بعملهم و عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين يتعظ من بعدهم من الأمم فينتهوا عن الكفر والظلم والتكبر والاستعلاء والاجرام وغيرها من الذنوب والآثام.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ [سورة النازعات].

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَفَكًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥١﴾ [سورة الزخرف].

وعمل من الملفات للنظر خلو الوثائق المصرية من مقون ونقوش وبرديات من أية إشارة أو خير أو رسم يشير إلى تلك الأحداث الجسام فى التاريخ المصرى القديم، على الرغم مما هو معروف عن المصريين من حرصهم على دقة تسجيل وتدوين تاريخهم ونقش لأحداثه على جدران معابدهم ومقابرهم، مقارنة بما وجد فى العهد القديم من تفصيل مسهب لهذا الحدث الحيوى لبنى إسرائيل، أو ما ذكره القرآن فى سياق قصة موسى مع فرعون. وقد يرجع السبب، فى ذلك إلى أن وجود بنى إسرائيل فى الحياة المصرية كان من الهوان بحيث لا يستحقون أية إشارة تدل على قيمة مادية أو معنوية لهم. ويعلل (جون سميث)<sup>(٢)</sup> سكوت الآثار المصرية عن قصة الخروج - أى خروج بنى إسرائيل من مصر - بأنها من

(١) تفسير القرطبي.

(٢) J. W. Smith. God & Man in Early Israel, London, 1956, P38.

وجهة النظر المصرية الفرعونية حدثاً ثانوياً لا يزيد عن كونها فرار مجموعة من العبيد من سادتهم المصريين، وما كانت هذه بالحادثه التي تسجل على جدران المعابد أو التي تقام لها الآثار لتسجيلها. إذ كان كل ما يهم المؤرخ المصرى فى عصوره الفرعونية المختلفة كلها هو تدوين انتصارات الفرعون ومفاخره، وما قام به للآلهة الذين كانوا يؤازرونه وينصرونه فى المواقع كلها. فليس من المتصور إذاً أن تسجل على المعابد دعوة موسى لإله أكبر هو رب العالمين، كما أنه من غير المعقول تسجيل فشل فرعون فى منع خروج بنى إسرائيل، فضلاً عن غرقه أثناء مطاردتهم. إذ إنها أحداث يجب فرض تعميم إعلامى كامل عليها وعلى كل ما يتعلق بها والعمل على محوها من ذاكرة الأمة وهو أمر غير مستغرب.

وقد يرجع هذا السكوت لاحتمال آخر هو أن الجيش الفرعونى الذى أصابه الغرق قد ضم كل العناصر الهندسية والكهنوتية التى كانت عماد الحضارة المصرية فى ذلك الوقت، فلما بادت هذه الطبقة كلها، خلت البلاد من ذوى الشأن فيها، وأقفرت وتحولت إلى بؤرة صراع على السلطة لم تكد تستقر بعد العديد من السنين حتى كانت هذه الأحداث قد نسيت تماماً ويرشحها للنسيان والإهمال الكامل أنها تتعلق بعبيد الأمس الذين سيصبحون أعداء لمصر.

وقد حاول بعض علماء الآثار البحث عن اسم «موسى» عليه السلام فى النصوص المصرية القديمة وافترض بعضهم العثور على هذا الاسم فى بردية تسمى بردية «أنستاسى الأولى»، غير أن هذا لا يمكن الاعتماد عليه نظراً لوجود العديد من الأشخاص الذين يحملون اسم «مس».

وقامت بعثة جمعية الاكتشافات الأثرية المصرية الإنجليزية بعمل حفائر فى شرق الدلتا، وكانت تأمل فى العثور على بقايا أثرية لجماعات الخروج غير أنها لم تعثر على أية أدلة مادية على ذلك.

كما أن النتائج العلمية من الحفائر التى تمت فى منطقة «جريكو» فى فلسطين عام ١٩٠٧ - ١٩٠٩ لم تعط أى دليل أثرى على موضوع الخروج. وكذلك البعثة الفرنسية فى عام ١٩٣٩ التى قامت بعمل حفائر فى تانيس شرق الدلتا وعثرت على مقابر الأسرة الحادية والعشرين لم تعثر على أى أثر يرجع إلى أحداث الخروج. وبالمثل نتائج الحفائر التى قامت بها بعض البعثات الأثرية اليهودية بالاشتراك مع بعثات أجنبية أخرى فى مناطق مختلفة من شبه جزيرة سيناء خلال احتلال اليهود لها بعد عام ١٩٦٧.

والأثر الوحيد الذى ذكر فيه لفظ «إسرائيل» تلك اللوحة التى عثر عليها الأثرى البريطانى «فلنדרز بترى» فى خرائب معبد مرنبتاح بطيبة (الأقصى) عام ١٨٩٦ ، وتعرف بأنشودة النصر أو بلوح إسرائيل ، إذ ورد اسم إسرائيل عليه لأول مرة فى التاريخ. وهى لوحة من الجرانيت محفوظة فى المتحف المصرى تحت رقم ٣٤٠٢٥ (صورة ٥).  
وتاريخ هذه اللوحة يعود إلى عهد الملك أمنحتب الثالث أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذى نصبها فى معبده الجنائزى فى البر الغربى فى طيبة ، وسجل على وجهها الأمامى نصاً عن إنجازاته المعمارية التى قام بها فى فترة حكمه (١٣٩٥ - ١٣٦٣ ق.م). وبعد ما يقرب من مائة وخمسين عاما تقريبا قام الملك مرنبتاح (صورة رقم ٦). أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة وابن الملك رمسيس الثانى ، بنقلها إلى معبده الجنائزى الذى شيده إلى الشمال من معبد أمنحتب الثالث فى البر الغربى من طيبة. وقام بتسجيل نص آخر على وجهها الآخر. ومما ساعد على عملية نقل هذه اللوحة إلى معبده هو قربه من معبد أمنحتب الثالث.

ويبدو أيضا أن إمكانيات النحت قد قلت كثيرا فى عهده. ونلاحظ أيضا أن مرنبتاح لم يحاول أن يمحو ويطمس النص الخاص بأمنحتب الثالث مما يدل على أن هذه اللوحة كانت قائمة فى مكان ظاهر فى معبده الجنائزى ولم تكن ملصقة إلى جدار أو حائط فى المعبد وإلا لآثر ذلك على سلامة نص أمنحتب الثالث الذى عثر عليه فى حالة جيدة. ولعل وضعها فى مكان ظاهر كان مقصوداً حتى يتمكن من يدخل معبده الجنزى من أن يقرأ النصين معا وربما يقارن أيضا بين ما حققه أمنحتب الثالث من إنجازات معمارية وبين ما حققه مرنبتاح من فتوحات عسكرية.

ولعل تسمية هذه اللوحة بـ «لوحة إسرائيل» قد جانبه الصواب ، والأولى تسميتها بـ «اللوحة ذات النصين» أو «لوحة انتصارات أمنحتب الثالث ومرنبتاح» أو «نص البر الغربى لأمنحتب الثالث ومرنبتاح».

ويمثل النص ، الذى ذكر فيه لفظ إسرائيل ، قصيدة يسجل الكاتب فيها النصر الكبير الذى أحرزه مرنبتاح على شعوب وقبائل البحر المتوسط واللوبيين وما جاء فيها من وصف لمدى هذا الانتصار. وقد وصف فيها الشاعر هزيمة الأعداء المنكرة والأعمال الجسام التى قام بها مرنبتاح للذود عن حياض بلاده وتخليصها من غارات الليبيين وكسر شوكتهم ، وما صارت إليه حالة أمير «لوبييا» وأسرته من بؤس وشقاء.

والقصيدة تزخر بالاستعارات والتشبيهات المختارة مما أسبغ عليها صورة أدبية أكثر من أن تكون وثيقة تاريخية خالصة. ولم يفت الكاتب أن يصف الفرعون بالعدل والاستقامة فيقول:

فهو يعطى كل ذى حق حقه، فالثروة تتدفق على الرجل الصالح، أما المجرم فلن يتمتع بغنيمة ما.

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف السلام والطمأنينة والرخاء التى سادت البلاد بعد هذا الانتصار فيقول:

فحتى الحيوان قد ترك جائلاً بدون راع

فى حين أن أصحابها يروحون ويغدون مغنيين

وليس هناك صياح قوم متوجعين

وفى ختام القصيدة أو الأنشودة يُعدّد الشاعر القبائل والأقاليم التى أخضعها مرتبّاح، وهو الجزء الذى يحظى بالأهمية التاريخية الكبيرة وهذا نصها:

ويقول الرؤساء المطروحين أرضاً: السلام!

ولم يعد يرفع واحد من بين «قبائل البدو تسعة الأقواس» رأسه. (اسم قديم لجيران مصر المعادين لها).

والتحمو (إحدى القبائل التى كانت تسكن ليبيا) قد خربت.

وبلاد «خاتى» قد أصبحت مسالة.

وكنعان أسرت مع كل خبيث. وأزيلت «عسقلان».

و «جيزر» قبض عليها. و «بنوم» أصبحت لا شيء.

وإسرائيل خربت وليس لها بذر.

و «خارو» (سوريا) أصبحت أرملة لمصر.

وكل الأراضى قد وجدت السلم.

وكل من ذهب جائلاً أخضعه ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ابن رع محبوب آمون

ابن الشمس مرتبّاح منشرح بالصدق، معطى الحياة مثل رع كل يوم.

وتمثل هذه اللوحة المثل الوحيد الذى ذكر فيه لفظ إسرائيل وعثر عليه فى الآثار

المصرية، والجملة التى ذكر فيها هى:

«وإسرائيل خربت وليس لها بذر».

وعلى الرغم من تكرار مثل هذا التعبير في اللغة المصرية القديمة في مواضع أخرى، فإن استعمالها هنا بالنسبة لبنى إسرائيل كان ذا أهمية كبيرة في بحث موضوع خروجهم من مصر سواء كان في هذا العهد أم قبله. أما فيما يتعلق بمعنى العبارة نفسها فقد ترجمها علماء اللغة والآثار بأوجه مختلفة منها:

□ وإسرائيل قد أقفروا وبذرتهم قد انقطعت (بريستد J.H. Breasted).

□ وقوم إسرائيل قد صاروا قفرا، ومحاصيلهم قد ذهب. (جرث F. L. Griffith).

□ وقوم إسرائيل قد اتلغوا، وليس لديهم غلة. (بترى F. Petrie).

□ وإسرائيل قد محى وبذرته لا وجود لها. (نافيل H.E. Naville).

ويذكر سليم حسن<sup>(١)</sup> أن علماء الآثار واللغة قد ترجموا الجملة التي وردت عن إسرائيل (وليس لها بذن) على وجهين بعضهم قال: إن محاصيلهم قد ذهب أو ليس لهم غلة. والأصح الوجه الآخر كما قال عالم المصريات الأمريكي جيمس هنري بريستد (١٨٦٥ - ١٩٣٥): وإسرائيل قد أقفروا وبذرتهم قد انقطعت. أو كما قال نافيل عالم المصريات السويسري (١٨٤٤ - ١٩٢٦)<sup>(٢)</sup>: وإسرائيل قد محى وبذرته لا وجود لها. ويشير إلى أن كلمة (بذرة) تدل على (الخلف) وهذا يتطابق مع ما نجده في اللغات الأخرى بمعنى أن البذرة والنسل واحد. وأنه في الدول العربية للآن نجد أن كلمة (بذرة) تستعمل بمعنى (النسل) أو (الأولاد)، ويقال لمن لا نسل له (لقد انقطعت بذرتة).

ويضيف «سليم حسن» أن في الأصل المصري للنقش تفصيلاً في كتابة إسرائيل له أهميته. فلقد درج المصريون فيما يخطون لغتهم القديمة هيروغليفية أو هيراطيقية أنهم كانوا يلحقون بهجاء اللفظ صورة، أو علامة تدل على المعنى وتخصه وتعرف باسم المخصص. وكانوا في ذكر المواضع والشعوب يلحقون بأسمائها رسماً يدل على الأرض السهلة إن كانت مصرية، أو رسماً يدل على الأرض الجبلية الوعرة - ورمزا آخر للأجنبي - أي لغير المصرى. وفي تلك القصيدة ورد ذكر تحنو، وخاتى، وورد ذكر كنعان، وعسقلان، وجيزر، وبانوعام، ثم اسم خارو (سوريا) وألحق بكل منها رسم الأرض الأجنبية الوعرة بغير استثناء. أما اسم إسرائيل فقد كان الاسم الوحيد الذى استثنى من رسم الأرض، حيث لا

(١) سليم حسن، مصر القديمة، الجزء السابع، ص ١١١.

(2) Henri Edouard Naville, Archeology of the Old Testament 1915 - The Store-City of Pithom and the Route of the Exodus, London, 1885

أرض محددة لهم يومئذ لا في فلسطين ولا في غير فلسطين، وكان الرسم الذى ألحق باسم إسرائيل هو صورة رجل وامرأة دلالة على أنهم مجرد جمع من الناس لا غير. وهذا يدل على أن الشاعر أو الكاتب الذى تغنى بانتصار (مرنبتاح) وصاغ هذا النشيد كان يعنى ذلك جيداً، ولا سبيل إلى التشكيك فى طريقة كتابة القصيدة بما يقال من احتمال خطأ الكاتب المصرى القديم وسهوه، فقد كان واعياً لما يكتب وأورد أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية فى ذلك النص ١٩ (تسعة عشر) مرة لم يغفل رسم رمز الأرض الأجنبية فى واحدة منها سواء ما سبق اسم إسرائيل أم ما ورد بعده. ويخلص من ذلك إلى أن أنشودة النصر هذه تشير إلى طائفة من (بنى إسرائيل) كانت فى بعض بقاع فلسطين أو تخومها حين خرج مرنبتاح لقمع ثورة هناك. وهذا يعنى أنهم قد خرجوا من مصر قبل عهد.

ويذهب البعض وراء هذا رأى، ومن هؤلاء عبد العزيز صالح<sup>(١)</sup> الذى يرى أن لوحة مرنبتاح لم تذكر تتبعه لهم من مصر وذلك يعنى أنهم دخلوا فلسطين قبل عهد، وبالتالي فهم خرجوا من مصر قبل عهد أى فى أواخر عصر رمسيس الثانى. ويوافق هذا الرأى «نافيل» الذى يرى أن اللوحة تدل على أن بنى إسرائيل قد خرجوا من مصر قبل مرنبتاح أو فى أوائل حكمه. غير أن هذا الافتراض الأخير وهو خروج بنى إسرائيل أوائل حكم مرنبتاح يتنافى مع الحقيقة المؤكدة وهى أن فرعون الخروج غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل، فلا يمكن أن يكون الخروج حدث فى أوائل حكم مرنبتاح بل يكون قد حدث فى أواخر حكم رمسيس الثانى الذى غرق أثناء مطاردتهم.

وبالتالى فإن هذه اللوحة قد كتبت بعد غرق فرعون (والمرجح هنا أنه رمسيس الثانى) وكتب نصها خلفه (مرنبتاح) تخليداً لذكرى انتصاره على الليبيين، وأضاف إليهم «بذرة إسرائيل قد أبيدت» كنوع من الافتخار الكاذب. فلا يعقل أن يكون الفرعون قد غرق أثناء مطاردة بنى إسرائيل ثم يدعى أنه أبادهم.

نقطة ثانية يقولها «نافيل» H.E. Naville، الذى قام بحفائر فى منطقة تل المسخوطة وفى وادى الطميلات وقدم تقريره عن هذه الحفائر تحت عنوان «قصة مدينة بتوم (فيثوم) وطريق الخروج» عام ١٨٨٥، أنه لا يعتقد أن الإشارة إلى سوريا فى اللوحة تشير إلى حرب حقيقة وقعت فى سوريا. فالحقيقة أنه لا يوجد ما يدل على أن مرنبتاح قد قاد أو سير حملة إلى سوريا أو فلسطين. كما أن ما ذكر من أن كل أراضي بلاد «خاتى» أصبحت مسالمة

(١) عبد العزيز صالح (دكتور)، الشرق الأدنى القديم، ج ١، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٠ ص ٢٥٥.

هو كما يقال من قبيل تحصيل الحاصل لأنها كانت مسالمة منذ المعاهدة التي وقعها والده رمسيس الثانى مع ملكها. إذ لو كان الأمر كذلك وحارب سوريا ودخل فلسطين لوجدنا إشادة بأعماله العظيمة التي قام بها هناك غير هذه الكلمات القليلة التي جاءت فى نهاية متن هذه اللوحة.

إذاً فالأسطر الأخيرة من هذه اللوحة تدل على أن سلامة البلاد كانت تامة، وفى الجانب الغربى من البلاد ومع اللوبيين كان نصره حاسماً، ومن الجانب الشرقى من جانب «خيتا» كانت فى سلام معه منذ حكم والده، أما الممالك الأخرى التي يصح أن تصبح أعداء له فقد صارت بلا حول ولا قوة.

فلا محل إذا للقول بأن بنى إسرائيل كانوا قد استقروا فى فلسطين لبعض الوقت ثم ذهب مرتبتاح وأباد بذرتهم وأعاد النفوذ المصرى إلى فلسطين ثانية. ويَجِبُ هذا كله أن سنوات التيه ثابتة لورودها فى القرآن الكريم وفى العهد القديم أيضاً فلا محل لإسقاطها أو إنكارها. فإن ذكره لإبادة بنى إسرائيل فى هذه اللوحة لا يعدو أن يكون كما يشير بيومى مهران<sup>(١)</sup> إلى أنه أحد الاحتمالات التالية:

● أنه ذهب إلى فلسطين ووجد بعضاً من العابيرو، وهم أقرباء لبنى إسرائيل وفرع منهم، فأبادهم، وظن أو ادعى أنه أباد بنى إسرائيل.

● أو أنه ذهب إلى فلسطين ولم يجد بنى إسرائيل ويبحث عنهم فى أنحاء فلسطين فلم يجدهم فاعتقد أنهم هلكوا فى الصحراء ونسب هلاكهم إلى نفسه.

● بالإضافة إلى كونه مجرد تفاخر اعتاده الفراعنة منذ أول عهود تاريخهم وأصبح أمراً موروثاً، أو أن مرتبتاح لم يقدر أو يرسل حملة إلى فلسطين إطلاقاً. وأنه كما نسب السلام مع «خاتى» لنفسه، فقد أراد أن يؤكد أنه لم يقل عن سلفه فى اهتمامه بأمالك مصر فى آسيا. فكان أن ضمَّن نصره على الليبيين نصراً فى الشرق أيضاً، فأضاف خاتى وجيزر وعسقلان وبالمثل كانت إضافته لاسم إسرائيل وكان ذلك أسهل إذ إنهم لم يكونوا دولة بل قوماً بدون أرض كما هو واضح من طريقة ذكرهم فى هذه اللوحة.

غير أنه يمكن القول أن تاريخ بنى إسرائيل فى مصر لم يذكر فى النصوص المصرية القديمة فيما يعرف حتى الآن غير هذه الإشارة التي جاءت فى هذه اللوحة، هذا إن كانت تدل عليهم. ويرجع هذا إلى أنهم لم يكن لهم مكانة اجتماعية أو سياسية تذكر، فقد كانوا

(١) محمد بيومى مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٣، ١٩٨٤، ص ٥٠٠.

فى عهد يوسف عليه السلام كما جاء فى العهد القديم من رعاة البدو، وكان كل راع يعد فى نظر المصرى لعنة.

وفى زمن موسى عليه السلام كان الإسرائيليون فوق ذلك كله عبيداً. ومن ذلك نفهم أنهم لم يكونوا بأية حال من هؤلاء القوم الذين يعنون بتدوين أعمالهم فى السجلات الرسمية، غير أنه وجدت حادثة واحدة تتصل بإقامتهم فى مصر كان لها من الوجهة المصرية أهمية سياسية واقتصادية، وذلك أن قيامهم بعمل مشترك وهو قصة خروجهم جملة من مصر كان يهم الحكومة وقتئذ لما كانوا يقومون به من أعمال السخرة للفرعون فى إقامة مبانيه. وعلى ذلك فإن الإشارة إليه فى السجلات الحكومية الخاصة بهذا العصر ممكن، وبخاصة إذا كان هؤلاء القوم يقومون بأعمال جسيمة ومفيدة للبلاد عامة وللفرعون خاصة. من هنا فإن ذكر بنى إسرائيل فى النقوش المصرية المعاصرة لإقامتهم فى مصر لابد أن يشير إلى حادثة خروجهم. وعلى ذلك فمن المحتمل أن تكون الإشارة فى أنشودة النصر هذه تشير إلى حادثة الخروج على أن ذلك يتوقف على أمرين كما يذكر سليم حسن<sup>(١)</sup>:

أحدهما يتعلق بمعنى الجملة التى جاءت فى الأنشودة خاصة بإسرائيل وهو ما تناولناه من قبل.

والثانى: هو العلاقة بين تاريخ الخروج وتاريخ نقش هذه اللوحة.

أما تاريخ اللوحة فمسجل فى متن النقش نفسه إن هذه القصيدة قد أرخت بتاريخ يوم الانتصار الذى أحرزه مرنبتاح على اللوبيين وهو اليوم الثالث من الشهر الحادى عشر من السنة الخامسة من حكم مرنبتاح. ولكنها ألفت بطبيعة الحال فيما بعد ويظهر أن هذه الحوادث التى ذكرت فى هذه القصيدة قد حدثت فى زمن قبل زمن تاريخ اللوحة، وإذا كانت قد وقعت واقعة بعد انتصاره على اللوبيين لفصل لنا فيها كما هى العادة عند الفراعنة.

أما تاريخ خروج بنى إسرائيل فغير معلوم ولا يمكن تحديده بصفة قاطعة. وعلى ذلك فقد رأيت طائفة من المؤرخين والأثريين من هذه اللوحة أن إسرائيل إن كانت قد تعرضت فى فلسطين لهزيمة مرنبتاح، فينبغى أن يكون خروجهم بالضرورة من مصر واستقرارهم بعد سنوات التيه الأربعين فى فلسطين قد حدث فى عصر قبل عصر مرنبتاح وافترضه البعض فى عصر تحتس الثالث أو المنحتب الثالث. وهناك طائفة أخرى ترى كما ذكر فى العهد القديم أن الفرعون الذى قام باضطهاد بنى إسرائيل وسخرهم فى خدمته هو «رمسيس

(١) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ٧، ص ١٠٩.

الثانى». وأن الفرعون الذى ينسب إليه الخروج هو ابنه مرنبتاح. ويستدلون بذلك بما ذكر فى العهد القديم سفر الخروج (الإصحاح ١ : ١١):  
«فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورمسيس».

وكما يذكر سليم حسن<sup>(١)</sup> والذى يشير إلى أن الاسرثيليين أجبروا على السخرة فى إقامة مبانى مدينتى «بتوم» أو كما جاءت فى العهد القديم «فيثوم» ورمسيس اللتين كانتا تستعملان مخازن. وأن الحفائر التى تمت فى «تل رطابة» (بتوم) و«بررمسيس»، قد دلت على أن الأولى قد أعيد بناؤها، وأن الثانية قد أقيمت فى عهد «رمسيس الثانى». حيث تم التحقق من اسم كلتا المدينتين فى العهد القديم فردت الأولى إلى تصحيف فى اسمها الأصلي «برتوم» بمعنى «دار أتوم» إله الشمس الأكبر. وردت الثانية، كما هو ظاهر، إلى اسم رمسيس، وعثر على آثار تحمل اسمه هناك. وكان قد اتخذها هو وبنوه من بعده عاصمة لهم باسم برعمسيس بمعنى دار رمسيس.

ومن الأدلة الأثرية التى تمدنا ببعض الإفادة فى هذا الموضوع تلك الوثيقة البردية المعروفة بورقة «أنستاسى السادسة» والمحفوطة بالمتحف البريطانى بلندن. وهذه الوثيقة ذكر فيها أحد الموظفين أنه كتب لرئيسه فى خطاب حكومى ينسب إلى عهد الفرعون الملك مرنبتاح:

(إن بدو (شاسو) إيتام (إدوم) قد سمح لهم على حسب التعليمات التى لديه أن يجتازوا الحصن الذى فى إقليم «سكوت» (تل المسخوطة) فى «وادي طميلات» ليتاح لهم رعى ماشيتهم بالقرب من بلدة «بتوم» (بيت آتوم) فى ضياع الفرعون العظيم.  
ووادي طميلات المذكور هو وادي ضيق كانت تجرى على جانبية قناة متفرعة من النيل شرقاً حتى البحيرات المرّة، وهو بمثابة مدخل لمصر من آسيا. وقد كان هذا الوادي موضع اهتمام «رمسيس الثانى» فأقام فيه عدة حصون، وفى وسطه أنقاض مبان فى «تل رطابة». وعلى مقربة منه شرقاً نجد بقايا مدينة «برآتوم» (بيت آتوم وهى المعروفة باسم «بتوم»). وعلى مسافة منه شرقاً تصادفنا أنقاض «تل المسخوطة» المعروف باسم «سكوت» وبالمرصية القديمة «سكو».

والبردية التى فيها هذا الخطاب قد وجدت ممزقة ولذلك لم يتسن ترجمتها كلها على

(١) سليم حسن، مصر القديمة، ج ٧، ص ١١٦.

الوجه الأكمل وما تبقى منها نص قصير والترجمة الدقيقة له هي :

(أمر آخريسر سيدي ، لقد انتهينا من ملاحظة مرور قبائل «شاسو» التابعين «لأدوم» من حصن «مرنبتاح حتب حر ماعت» له الحياة والفلاح والصحة في «سكوت» نحو برك «بتوم» لأجل أن يطعموهم ويطعموا قطعانهم في ضيع الفرعون له الحياة والفلاح والصحة وهو الشمس الطيبة لكل أرض.. ولقد جعلتهم يحضرون..) إلى هنا ينتهي النص الموجود بالبردية<sup>(١)</sup>.

وهذا الخطاب كتب في السنة الثامنة من حكم الفرعون مرنبتاح. ويظهر منه أن هؤلاء الشاسو (البدو) كان قد سمح لهم بالاستيلاء على بعض أرض الفرعون في جوشن (وادي طميلات) ، ومن البديهي أن هذه الحالة لا يمكن أن تحدث إذا كان الإسرائيليون لا يزالون يقيمون في أرض جوشن في السنة الثامنة من حكم هذا الفرعون.

وعلى ذلك فلا بد أن تكون حادثة الخروج قد وقعت في وقت ما قبل هذا التاريخ ، وهذا يجعل تاريخ الخروج على أية حال قريباً من تاريخ نقش اللوحة. وهذا الدليل لا يسمح بتقريب زمن خروجهم أكثر من ذلك بل يجوز أنه قد يتقدم به.

وعلى النقيض من ذلك هناك من ينفي صلة بنى إسرائيل بلوحة النصر أو لوحة مرنبتاح السابقة ومنهم د. رمضان عبده<sup>(٢)</sup> الذي يذكر أن أغلب العلماء عندما يتعرضون لهذه الفقرة في كتاباتهم يترجمون كلمة «يزريل ب إسرائيل» وهذا ما يخالف في رأيه قراءة وترجمة الكلمة على هذا النحو. ويرى قراءتها وترجمتها ب «يسيراو» والمقصود بهذه التسمية سكان أو قبائل سهل «يزريل» أو «جزريل» (Jezreel) - الذي ذكره العهد القديم تحت اسم اسدرالون (Esdraelon) ، وهو مرج ابن عامر من الناحية الشرقية الشمالية من جبال الكرمل والذي يمتد من حيفا غرباً إلى وادي الأردن.

ومن ناحية أخرى فإن ترجمة الاسم ب «إسرائيل» يخالف ما كان سائداً من أوضاع سياسية في فلسطين في عصر الأسرة التاسعة عشرة وما قبلها ، لأن ترجمة الكلمة ب «إسرائيل» يعنى وجود أرض مملكة إسرائيل على أرض فلسطين في بداية هذه الأسرة أو قبل قيامها بفترة ، وهذا لم تشر إليه النصوص من هذه الفترة.

(١) سليم حسن ، مصر القديمة ، ج ٦ ، ص ٥٨٧ .

(٢) رمضان السيد عبده (دكتور) ، تاريخ مصر القديمة ، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية ، هيئة الآثار المصرية ، ج

ويبدو أن جيش مرنبتاح قد اتخذ الطريق الدولي القديم الذى يمكن تتبعه من دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع إلى مناجم النحاس والفيروز في شبة جزيرة سيناء. ومن سيناء يتجه الطريق شمالاً نحو ساحل فلسطين حتى جبال الكرم على مسافة من البحر. ومن هنا يتفرع إلى طريقين يتجه الواحد إلى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانى الفينيقية. ويسير الأخر إلى الداخل فيجتاز سهل مجدو ويعبر الأردن في واديه الشمالى ثم يتجه رأساً إلى دمشق في الشمال الشرقى.

وكما يحدثنا نص مرنبتاح أن جيش الملك بدأ بمعاقبة كنعان ويقصد بها هنا مدينة غزة ثم عسقلان وهما يقعان على الساحل الجنوبي لفلسطين، ثم سار إلى وادى الأردن أو منطقة مرج ابن عامر (Esdraelon) أى اجتاز فلسطين بأكملها وتقابل مع سكان أو قبائل سهل جزريل أى فى المنطقة التى تفصل بين تلال الجليل فى الشمال عن مرتفعات فلسطين فى الجنوب. ويلاحظ أن الكاتب المصرى قد اتبع الترتيب الجغرافى أى ذكر مدن جنوب الساحل ثم الموجودة فى الداخل فى الشمال الشرقى.

ويضيف د. رمضان عبده فى بحث آخر له<sup>(١)</sup> أن كلمة «يزريل» بها مخصص العصا المعقوفة وهو المخصص نفسه الذى نجده فى أسماء الشعوب الأجنبية. كما أن كاتب النص أضاف إلى الكلمة أو الاسم مخصص الرجل الجالس والمرأة واتبعهما بثلاثة شرط علامة الجمع. مما يؤكد أنه يقصد الأقوام أو الشعوب أو القبائل أو الأشخاص.

ويلاحظ أيضاً خلو الكلمة أو الاسم من أية مخصصات للمكان (الجبل أو المدينة) مما يدل على سكان البلاد الأجنبية والذى نجده فى أسماء بعض المدن الفلسطينية مثل كنعان وعسقلان وجزر وينعم. ونلاحظ كذلك أن فى أسماء هذه المدن الأخيرة يوجد مخصص العصا المعقوفة والجبل معاً مما يعنى أنها تخص ممالك أو دول وشعوبها أو مدن سكانها. ولهذا فإن غياب مخصص الجبل أو المدينة من كلمة «يزريل» يدل على أن التسمية يراد بها أقوام كانت تعيش فى مناطق الحواف الجنوبية لسهل جزريل شرق شمال جبال الكرم، ولهذا لم يربطهم النص صراحة بمدينة أو بمنطقة جبلية داخل فلسطين نفسها. وذلك يعنى أيضاً أنهم كانوا أقواماً فى حالة ترحال وتنقل دائمين، أو كانوا من سكان مناطق السهل المتاخم للحدود مما تؤكد علامة الحدود فى الاسم. ومما يدل على أن الحديث هنا فى كلمة

(١) رمضان السيد عبده (دكتور). النوحة ذات النصين ليست لوحة إسرائيل، مجلة كلية الآداب جامعة النيا،

«يزريل» عن سهل، هو المصطلح المصري القديم : bnprt.f أى «لم يعد له بذور» حيث إن الزراعة لا تنمو إلا في مناطق السهول. كما أن الكاتب المصري استخدم الضمير المتصل للشخص الثالث الغائب المذكور المفرد للدلالة على الملكية «له» ولم يكتب «لهم».

ويضيف بأنه لم يذكر لنا النص من قريب أو من بعيد أنهم كانوا من نزلاء فلسطين. كما يستدل بنص مؤرخ من العام الثامن من حكم رمسيس الثاني جاء فيه التعبير الجغرافى يزرى (ل) الذى كان يطلق على المنطقة جنوب فينيقية وهذا التعبير قريب الصلة بكلمة «يزرى» فى نص مرنبتاح حيث يلاحظ وجود مخصص العصا المعقوفة والجبل معاً فى نهاية الكلمة. وهذا النقش عبارة عن نص موجود على البرج الشمالى للصرح الأول فى معبد الرامسيوم يسجل فيه الملك رمسيس الثانى استيلائه على ٢٨ مدينة فى منطقة الخليل قامت بثورة ضده، واستولى عليها الواحدة تلو الأخرى.

وعلى ذلك فإن كلمة «يزريل» (Jezreel) «مرج ابن عامر» فى شرق شمال جبال الكرمل يقصد بها سكان هذه المناطق ولا يقصد بها كما فهم أو فسر أغلب علماء الدراسات المصرية بالاسم «إسرائيل». ومما يعزز هذا الرأى هو ما جاء فى نهاية الفقرة: «وشارو أصبحت أرملة لمصر»، وكما نعلم أن كلمة «شارو» كان يقصد بها جنوب فينيقية (أو سورية) وجزء من فلسطين. ولم يظهر أى من التعبيرين: يزريل الذى جاء فى نص مرنبتاح ويزرى (ل) الذى جاء فى نص رمسيس الثانى فى المصادر التاريخية أو الأثرية المصرية من العصور اللاحقة مما يشير إلى أن هذين التعبيرين استخدما فقط فى الأسرة التاسعة عشرة للتعبير عن معنى جغرافى محدد.

ويشير إلى أن كل هذه المعطيات تصب فى خانة أن المقصود بكلمة «يزريل» فى نص مرنبتاح هم قبائل سهل جزريل الذين أرادوا أن يحتكوا بجيوش الملك مرنبتاح فأنزل بهم أشد العقاب. وإذا نظرنا إلى ترتيب ذكر مدن الساحل فى نص مرنبتاح نجده يذكر كنعان وعسقلان وجزر وينعم مما يدل على أن جيوش الملك بعد أن أخضعت مدن الساحل اتجهت إلى الناحية الشرقية الشمالية من سهل فلسطين لإخضاع القبائل هناك الذين ربما تعرضوا لسبل التجارة المصرية والدليل على ذلك أن نهاية النص تخبرنا «وبالنسبة لأى من (أقوام) الرحل الخارجيين (عن الطاعة) فإنه سوف يقضى (عليه) بواسطة ملك مصر» وتختلف قبائل سهل «يزريل» عن جماعات البدو المعروفة التى كانت تقطن جنوب فلسطين وتغير على الحدود الشرقية لمصر وتهدد طرق التجارة مثل العابيرو، والشاسو والبيدوشو. وقد فرق

الكاتب المصرى فى نصوص الدولة الحديثة بين هذه القبائل خارج حدود مصر الشرقية،  
فهى قبائل رحل.

وتشير الفقرة «لم يعد له بذور» أن المنطقة أصابها دمار شديد، أى لم يصبح لديها ما  
تستطيع أن تقتات به، على الرغم من أن النص لم يذكر السبب الحقيقى وراء معاقبة هذه  
الجماعة أو القبائل. ولكن كان من نتيجة هذه الحملة أن أصبحت سورية وفلسطين بدون  
حماية، وهذا هو المقصود بالتعبير «خارو أصبحت أرملة لتاميرى» أى إن جيوش الملك  
نجحت فى تأمين الحدود الشرقية وما وراءها.

كما أن اسم إسرائيل لم يرد فى مصادر التوراة إلا فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد  
حين ذكر أن ميشع ملك مؤاب حارب إسرائيل، وأن لوحة مرنبتاح ترجع إلى القرن الثالث  
عشر ق.م (١٢٣٠ ق.م)، فى العام الخامس من حكمه.

ومن هنا يصل إلى أن نص مرنبتاح ليس له صلة بأحداث الخروج وذلك لأننا نعلم أن  
الظروف التى مهدت للخروج وأسبابه معروفة فى آيات القرآن الكريم وكذلك المعجزة التى  
وقعت خلال الخروج. فكلمة «خروج» أو «طرد» لم ترد فى نص اللوحة بالنسبة لقبائل  
سهل «يزريل» ولم يذكر النص كذلك أى تتبع للملك لهذه القبائل من داخل الحدود المصرية  
نفسها، ولم يذكر النص أيضاً أية معجزة.

وقد عثر على اسم الملك مرنبتاح على أكثر من أثر فى شبه جزيرة سيناء وجزر ورأس  
الشجرة وتل الدوير فى فلسطين مما يدل على نشاطه واهتمامه بتأميم هذه المناطق الشرقية.  
ويبدو أن عهد مرنبتاح كان عهداً لإحياء روح الكفاح الوطنى، فى عهده كتبت بردية  
ساليبة رقم ١ التى تعود بالأحداث إلى الورا وتحدثنا عن بداية حرب التحرير ضد ملوك  
الهكسوس والتى بدأها «سقن رع». وكتبت هذه البردية فى ذلك العهد لتبين أن الانتصارات  
القومية القديمة لم تمنح من مخيلة بعض المثقفين والكتبة مهما طال الأمد عليها.

ويبدو أن تسجيل الانتصار على الليبيين وشعوب البحر على أكثر من مصدر، وكتابته  
فى نص طويل من ثمانين سطراً «نص الكرنك الأثر رقم ٤» يدخل ضمن هذه السياسة لبعث  
روح الكفاح الوطنى والإشارة إلى حملته على آسيا وبعض المدن الفلسطينية، والمبالغة فى  
معاقبة هذه المدن وقبائل سهل يزريل ربما كان اتجاهاً معيناً من الكتبة المصريين الذين ربما  
قد تأثروا بأحداث الخروج المحتمل وقوعه أو حدوثه قبل عهد مرنبتاح؟.

وهناك حقيقة هامة وهى أن آيات القرآن الكريم تؤكد لنا أن فرعون قد غرق هو ومن معه

أوهو وجنوده ثم أمر الله عز وجل بأن ترفع جثته مصداقاً لقوله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِدُنُوكَ لِتُكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ [سورة يونس].

وقد قال ابن عباس<sup>(١)</sup> وغيره من السلف في تفسيره لهذه الآية: «أن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله سبحانه وتعالى البحر أن يلقى به جسده سويًا بلا روح، ليتحققوا من موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى «فاليوم ننجيك» أن نرفعك على نشز من الأرض «ببدنك». قال مجاهد بجسدك، وقال الحسن «بجسم لا روح فيه» وقوله «لتكون لمن خلقتك آية» أى لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك وأن الله هو القادر. وجاء في سفر الخروج «أن ملك مصر قد مات وتنهى بني إسرائيل».

والآن كيف يكون مرتباج هو فرعون الخروج كما يدعى البعض طالما أنه قام بحملته على فلسطين في العام الرابع أو الخامس من حكمه، فلو أنه غرق لما ذكر اسمه على بردية أنستاسي السادسة، والمؤرخة بالعام الثامن من حكمه. كما أن لدينا آثاراً مؤرخة بالعام العاشر من حكم مرتباج. وإذا كان الملك قد غرق في أعقاب طرد بني إسرائيل لما قيل له في نهاية السطر ٢٨ على لوحته هذه الدعوة والتي تذكر لكل ملك: «معطى الحياة مثل رع يومياً» والدعوة نفسها ذكرت في نص الكرنك «الأثر رقم ٤ السطر ٧٩ معطى الحياة مثل رع أبدياً».

كما أن مدة حكم مرتباج كانت مدة حكم قصيرة نسبياً فقد حكم حوالي عشرة أعوام أو أقل أو أكثر بقليل، وعندما تولى الحكم كان كبيراً في السن. وعلى الرغم من كبر سنه إلا أنه كان خبيراً في شؤون السياسة الخارجية وشعر بالخطر الذي كان يهدد حدود مصر الغربية والشرقية. ويبدو أن تأثير مرتباج في أبيه العجوز كان كبيراً وكان هو الموجه الحقيقي للسياسة الخارجية للبلاد لهذا فإن احتمال حدوث الخروج في عهده مع الظروف التي مهدت له لا يمكن أن تحدث خلال هذه الفترة القصيرة من الحكم وعلى ذلك فهو ليس فرعون الخروج، ولا لحملته على فلسطين أية صلة بأحداث الخروج.

وبناءً على كل هذا فإن تسجيل أحداث الخروج بما فيها من وقائع وتفصيل ومعجزات يحتاج إلى كثير من الأسطر وربما إلى أكثر من نقش على لوحة واحدة.

ومن المحتمل أيضاً أن أحداث الخروج قد حذفت عن عمد من النصوص لأنها تمس العقيدة ولهذا فلا يجب الاعتماد على فقرة قصيرة أو كلمة مشكوك في قراءتها في نص

(١) مختصر تفسير ابن كثير.

مرنبتاح للإدلاء بآراء كبيرة والربط بينها وبين حدث ديني هام مثل حادث الخروج، وتخيل قيام مملكة إسرائيل قبل قيامها الفعلي بأربعة قرون تقريباً يتعارض مع حقائق التاريخ. كما أن الملك رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ ق.م) قد قام بعد العام الحادى عشر من حكمه بحملة للقضاء على ثورة قامت فى بلاد الشام. وقضى الملك على جماعة من البدو كانوا يتنقلون فى الصحراء جنوب فلسطين ولم يكن ذلك سوى غارة حربية لم تتكرر بعد ذلك ولم تذكر نصوص رمسيس الثالث أية إشارة إلى بقايا لأقوام اليسيراريو مما يدل على أن الملك مرنبتاح قد قضى عليهم تماماً.

ومن المحتمل أن يكون هناك نوع من الرقابة قد فرض على تسجيل مثل هذه الأحداث وعدم الإشارة إلى ما تعرض له فرعون موسى من مصير وما حدث فى عهده من معجزات أو كوارث. لأن كل ما كان يعبر عن الفشل والمصائب والكوارث فى حياة الملوك نجده قد انتزع من النصوص الرسمية أو أشير إليه إشارة عابرة.

وإن سير الرسل والأنبياء وما نادوا به من رسالات وما قاموا به من أعمال ومعجزات هى رسالات روحية سماوية مقدسة أسمى من أن تسجل على أثر مادى وأسمى من أن تسجل بواسطة كتبة عاديين أو بواسطة من لهم خبرة فى النقش والنحت. لأن سير هؤلاء الرسل الذين شرفت بهم أرض مصر القديمة منهم سيدنا إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وغيرهم ظلت بدون شك حية فى قلوب من آمنوا برسالاتهم ومن عاصروهم من أبناء مصر القديمة. وظلت ذكرى ما نادوا به تتناوله الأجيال عبر آلاف السنين. فجاء ذكرهم فى آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم وذكرهم وذكر أعمالهم فى آيات القرآن أبلغ من أى مصدر آخر من صنع البشر، وذكرهم إنما هو بمثابة تشريف لتاريخ مصر القديمة.

كما ظلت المصادر التاريخية فى بلاد الشرق القديم على صمتها إيذاء قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم والذين جاء ذكرهم فى آيات القرآن الكريم منهم سيدنا نوح وإبراهيم وموسى وهارون وعيسى وإلياس وياسين ويونس وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم. فلم نعثر حتى الآن على أية إشارة لهذا القصص فى المصادر الأثرية القديمة بلغة أقوامها فى بلاد النهرين وفلسطين والأردن وشبه الجزيرة العربية أو فى غيرها. ألا يدعوننا كل هذا إلى التأمل والتفكير؟

وللأسف فإن بعض نظريات علماء الدراسات المصرية القديمة والتفسيرات الخاطئة لبعضهم تلقى قبولاً من البعض، كما يذكر د. رمضان عبده، فيتبناها غير مدرك خطورتها

دون الرجوع إلى قراءة النصوص الأصلية قراءة صحيحة ، فالتلاعب بالكلمات وتزويرها وطمس الحقائق أو تحريفها أمر متوقع من دعاة بعض التيارات السياسية كالصهيونية ومؤيديها في أوروبا لتفسير التاريخ حسب أهوائهم وأطماعهم وإعطاء التفسيرات اللغوية الخاطئة بعداً تاريخياً لا يتفق مع حقائق الأحداث.

□□□